عناية السنة النبوية بالعلاقات الإنسانية

دراسة موضوعية في ضوء السنة النبوية

بحث مقدم

إلى المؤتمر العلمي الأول

تجديد العلوم العربية والإسلامية بين الأصالة والمعاصرة

المنعقدة بكلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنين بدسوق

جامعة الأزهر ٢٠/٣/٢٠٢١

(الجزء الثالث)

إعـــــداد

الدكتـــــورة

إلهام خلف اللّه يوسف أحمد

مدرس الحديث وعلومه

بكلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بسوهاج

مقدمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين ،سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ، والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد،

فإن الحديث عن (عناية السنة النبوية بالعلاقات الإنسانية) ، لحديث له شؤون وشجون ، وما ذلك إلا لأن العلاقات الإنسانية باختلاف أنواعها سواء أكانت بين شرائح المجتمع المختلفة من أقارب أو جيران أو أزواج أم على مستوى الشعوب المختلفة لهي محل اهتمام ورعاية الشرع الشريف وجل جهد العُلماء منصب عليها.

إن أمر العلاقات الإنسانية أمر عظيم الشأن ومعنى جليل القدر ، له جذور ضاربة في عمق التاريخ البشري ، يمتد إلى بدء الخليقة وقضية خلق آدم –عليه السلام– وذريته من بعده، وذلك قبل إرسال الرسل أو تشريع الشرائع ، فالمتأمل لآيات كتاب الله العزيز وما ورد في قصة خلق آدم عليه السلام وإهباطه وذريته إلى الأرض، وما ورد من قصة قتل قابيل لأخيه هابيل، ولم يكن آنذاك قد وقع قتل قبل هذه الواقعة.

أخرج البخاري في صحيحه بسنده إلى عَبْدِ اللَّهِ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ « لاَ تُقْتَلُ نَفْسٌ ظُلْمًا إِلاَّ كَانَ عَلَى ابْنِ آدَمَ الأَوَّلِ كِفْلٌ مِنْ دَمِهَا لأَنَّهُ أَوَّلَ مَنْ سَنَّ الْقَتْلَ».(١)

قال تعالى: ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ... فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ

---

١) صحيح البخاري ،كتاب: الأنبياء– باب: قول الله تعالى: { وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة }٣/١٢١٣ح ٣١٥٧، ومسلم في صحيحه، كتاب: القسامة — باب: بيان إثم من سن القتل٥/١٠٦رقم ٤٤٧٣

يُوَارِي سَوْأَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْأَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ ﴾ (١)

والناظر لهذه القصة بعين الإنصاف ، ليلحظ أن الدافع الذي حرك فطرة قابيل للندم على ما اقترفه من جريمة قتله لأخيه هابيل ، لهو حيرته التي وقع فيها بعد قتل أخيه عن كيفية مواراة جسده الذي فقد الحياة، ولم يكن ثمة مثال سابق ليحتذي به أو يقوم بتقليده في هذا الشأن!

لكن المولى عز وجل حينما أرسل له الغراب الذي قتل أخيه ثم ألهمه الله تبارك وتعالى أن يحفر في التراب ليقوم بدفن أخيه الغراب، هنا وقع الندم من قابيل على عجزه وعدم معرفته كيف يواري سوءة أخيه، بل وقع منه الندم على فعل القتل ذاته وما هذا إلا لفطرة الإنسانية التي أودعها الحق تبارك في بني البشر.

قال الإمام القرطبي: قوله تعالى : { فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَاباً يَبْحَثُ فِي الأَرْضِ } قال مجاهد : بعث الله غرابين فاقتتلا حتى قتل أحدهما صاحبه ثم حفر فدفنه. وكان ابن آدم هذا أول من قتل. وقيل : إن الغراب بحث الأرض على طعمه ليخفيه إلى وقت الحاجة إليه ؛ لأنه من عادة الغراب فعل ذلك ؛ فتنبه قابيل ذلك على مواراة أخيه.

قال: بعث الله الغراب حكمة ؛ ليرى ابن آدم كيفية المواراة ، وهو معنى قوله تعالى : {ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ} ، فصار فعل الغراب في المواراة سنة باقية في الخلق ، فرضا على جميع الناس على الكفاية ، من فعله منهم سقط فرضه. عن الباقين. وأخص الناس به الأقربون الذين يلونه ، ثم الجيرة ، ثم سائر المسلمين) (٢).

---

١) سورة المائدة- آية ٣١

٢) الجامع لأحكام القرآن ٦/١٤١- ١٤٣

ولا شك أن تلك الواقعة كانت قبل نزول الشرائع السماوية، أي أن هذا الندم الذي هو فعل القلب وهذا المشهد الذي هو تعليم قابيل كيفية دفن أخيه هابيل ليواري سوأته كان بدافع الرحمة العامة التي أنزل الحق تبارك وتعالى جزءا واحدا منها بين الخلائق ليتراحمو به فيما بينهم.

فإذا تدرجنا عبر التاريخ البشري ومرورا بإرسال المولى ﷻ لرسله الكرام ووصلنا إلى الدين الإسلامي الحنيف ورسالة الإسلام السمحة وبحثنا في السنة النبوية عما يؤيد هذا المعنى ويدعمه لوجدنا أصلا عظيما يصف لنا الرحمة العامة في أعلى صورها وأرقى مشاهدها.

وصفها لنا الحق تبارك وتعالى فيما بلغ نبيه الكريم ﷺ عنه سبحانه.

أخرج البخاري ومسلم في صحيحيهما بسندهما إلى أَبَي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: « جَعَلَ اللَّهُ الرَّحْمَةَ مِائَةَ جُزْءٍ فَأَمْسَكَ عِنْدَهُ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ وَأَنْزَلَ فِي الأَرْضِ جُزْءًا وَاحِدًا فَمِنْ ذَلِكَ الْجُزْءِ تَتَرَاحَمُ الْخَلاَئِقُ حَتَّى تَرْفَعَ الدَّابَّةُ حَافِرَهَا عَنْ وَلَدِهَا خَشْيَةَ أَنْ تُصِيبَهُ »[1].

وهنا كلام نفيس للحافظ ابن حجر يشرح به معنى الرحمة.

قال الحافظ بن حجر: (قوله " فمن ذلك الجزء تتراحم الخلق" حتى ترفع الفرس حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه في رواية عطاء فيها يتعاطفون وبها يتراحمون وبها تعطف الوحش على ولدها وفي حديث سلمان فبها تعطف الوالدة على ولدها والوحش والطير بعضها على بعض ... ووقع في حديث سلمان عند مسلم في آخره

---

١) صحيح البخاري، كتاب: الأدب- باب: جعل الله الرحمة في مائة جزء٥/٢٢٣٦رقم٥٦٥٤، وصحيح مسلم،كتاب:التوبة-باب: فِي سَعَةِ رَحْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى وَأَنَّهَا سَبَقَتْ غَضَبَهُ ٨/٩٦رقم٧١٤٨.واللفظ له

من الزيادة "فإذا كان يوم القيامة أكملها بهذه الرحمة مائة" وفيه: إشارة إلى أن الرحمة التي في الدنيا بين الخلق تكون فيهم يوم القيامة يتراحمون بها أيضا وصرح بذلك المهلب فقال الرحمة التي خلقها الله لعباده وجعلها في نفوسهم في الدنيا هي التي يتغافرون بها يوم القيامة التبعات بينهم قال ويجوز أن يستعمل الله تلك الرحمة فيهم فيرحمهم بها سوى رحمته التي وسعت كل شيء وهي التي من صفة ذاته ولم يزل موصوفا بها فهي التي يرحمهم بها زائدا على الرحمة التي خلقها لهم قال ويجوز أن تكون الرحمة التي أمسكها عند نفسه هي التي عند ملائكته المستغفرين لمن في الأرض لأن استغفارهم لهم دال على أن في نفوسهم الرحمة لأهل الأرض) [1].

ومن هذا المنطلق وهذا التأصيل لقضية العلاقات الإنسانية بين البشر، وما هو حادث في الأعصر الأخيرة من تفكك لوحدة الأمة ، وتوتر العلاقات بين بعض أفراد المجتمع وبعضهم الآخر، بل بين أفراد الأسرة الواحدة وبين بعضهم الآخر، وجدت أنه من الأهمية بمكان أن أرمي بسهم في ميدان البحوث المهتمة بإبراز هذا الجانب الإنساني من أصول نصوص الشرع الشريف عامة، وأقوال وأفعال النبي ﷺ الدالة على تدعيم روابط المحبة بين البشر بجامع الإحسان في العلاقات الإنسانية التي هي أعلى القيم في منظومة الفكر الإسلامي وأولاها بالاهتمام والعناية.

وقبل أن أشرع في تناول جزئيات البحث بالتفصيل ، لابد أولا من وضع تعريف لمفهوم (العلاقات الإنسانية) ولو على سبيل العموم ، وقد استطعت من خلال مطالعتي لعدد من المقالات والمنشورات التي تدور حول هذا المعنى أن ألتقط تعريفا أرى أنه الأقرب إلى تحديد مفهوم مصطلح (العلاقات الإنسانية)

---

١) فتح الباري١٠/٤٣٢

وقد ذكر فيه أنها تعني: كيفية التنسيق بين جهود الأفراد المختلفين وخلق جو عمل يحفزهم على الآداء الجيد والتعاون في سبيل الحصول على نتائج أفضل ، مما يترتب عليه إشباع رغباتهم الاقتصادية والنفسية والاجتماعية [١].

أسباب اختيار الموضوع

١- المشاركة في إثراء المكتبة الحديثية بمثل هذا النوع من الدراسات الذي يحاول ربط التراث الإسلامي بالواقع المعاصر وبيان العلاقة بينهما.

٢- رد الشبهة القائلة بأن هناك انفصال بين التراث الإسلامي وما جاء به من قيم ومبادئ وبين الواقع المعاصر.

٣- كشف اللثام عن الجانب الأخلاقي والإنساني في حياة النبي الكريمﷺ من خلال عرض توجيهاته الشريفة ووصاياه الحكيمة لمن حوله من الصحب الكرام ابتداءا ولسائر أفراد الأمة انتهاءً.

٤- توضيح سبب ما يشاهد من انحراف في تصرفات بعض الأشخاص من أن سببه هو بعدهم عن التمسك بتراثهم القيمي والبعد عنه، أو انحراف أفهامهم عن المعنى الصواب لما ورد به الشرع الشريف من أوامر أو توجيهات ، وليس سببه كما يدعي البعض خلل أو خطأ المنهج.

٥- غياب جانب الإحسان في ما يشاهد من معاملات بين عدد لا يستهان به من أفراد المجتمع المسلم مما حدا بي أن ألقي الضوء على هديه الشريف ﷺ في هذا الجانب الذي لا يستهان به، بل نستطيع القول بأنه محور ارتكاز كافة العلاقات الإنسانية.

---

١) شبكة المعلومات الدولية الإنترنت

***أهمية الموضوع:**

يكتسب الموضوع أهميته من أهمية جزئياته المندرجة تحته، ولما كان موضوع البحث يدور حول مراتب الإحسان في العلاقات الإنسانية على اختلاف صورها وعناية الشرع الشريف بها ، كان حريا بكل من اشتغل بعلوم أصول الدين والشريعة أن يجعل لهذا المحور نصيبا من جهده ووقته ، حيث أنه لا غنى لأي أحد عن أن تكون له علاقة إما مع خالقه وإما مع الكون المحيط به، على أن تلك العلاقات إن لم يكن الرابط فيها بين أفرادها هو الإحسان والرحمة العامة، فلن تستقيم لأصحابها قط.

إن الناظر إلى النصوص القرآنية والمشاهد النبوية الداعية إلى لزوم مقام الإحسان بتجرد عن أي تعصب أو أية مذهبية ، ليجد أن السقف الأعلى الذي تمر أسفله تلك الحوادث والمجريات ما هو إلا سقف الإحسان والرحمة العامة التي أنزلها الحق تبارك وتعالى ليتراحم بها الخلائق بين بعضهم البعض.

وفي هذا البحث المتواضع ومن خلال مطالعتي لعدد من كتب السنة المشرفة أردت أن أضع أمام القارئ الكريم عددا من المشاهد والمواقف والنصوص التي أكد الشرع الشريف – متمثلا في نصوص القرآن الكريم وسنة النبي الكريم ﷺ – من خلالها مدى عنايته بالعلاقات الإنسانية على اختلاف أشكالها وتنوع ما بينها من عموم وخصوص ومن خلال ما هي عليه من مراتب.

وقد استطعت أن ألاحظ من خلال مطالعتي لعدد من كتب السنة ، أن الروح السارية والخيط الناظم ، والمعنى الكلي الذي يربط بين هذه العلاقات على اختلاف مراتبها ودرجاتها لهو مقام (الإحسان).

كما أن الغاية الكبرى من غايات الشرع الشريف التي جاء من أجل إرسائها لهي (الإحسان) بين المخلوقات، كما قرر ذلك عدد من علماء أصول الدين ، منهم

سلطان العلماء العز بن عبد السلام-رحمه الله- ، حيث يقول: (إن كلمة الإحسان هي ملخص كل غايات الشريعة، وأحد أهدافها ومقاصدها، ولو أردنا أن نجمع كل غايات الشريعة في كلمة واحدة لكانت الإحسان).

وقد قمت بتقسيم بحثي المتواضع هذا والذي عنونته: (عناية السنة النبوية بالعلاقات الإنسانية) دراسة موضوعية في ضوء السنة النبوية.

إلى مقدمة ، وثلاثة مباحث ، وخاتمة ، ثم ذيلته بفهرسين.

أما المقدمة: ففيها الكلام عن أصل قضية الإنسانية عبر العصور، وتعريف لمفهوم العلاقات الإنسانية، وأسباب اختيار الموضوع، وبيان أهميته من خلال استقرائي لعدد من نصوص الشرع الشريف سواء أكانت من القرآن الكريم أم من السنة المطهرة.

وأما المباحث:

فالمبحث الأول: مرتبة الإحسان في علاقة العبد مع المولى عز وجل.

والمبحث الثاني: مرتبة الإحسان في علاقة الإنسان مع أخيه الإنسان.

والمبحث الثالث: مرتبة الإحسان في علاقة الإنسان مع الأكوان (حيوان، نبات، أو جماد).

وأما الخاتمة فقد تضمنت أهم النتائج والتوصيات.

وأما الفهارس فقد سقت فهرسا للموضوعات وآخر للمصادر والمراجع.

*****

المبحث الأول

مرتبة الإحسان في علاقة العبد مع المولى عز وجل

وذلك أن في نفس كل إنسان فطرة تدعوه وشعور داخلي يحدو به دوما للانقياد إلى قوة عليا يشعر تجاهها بضعفه واحتياجه إليها، وهي ما يسميه علماء الأصول (فطرة التدين).

وفي شأن كل إنسان مسلم إنما تكون تلك الطاعة وذاك الانقياد للحق تبارك وتعالى والخالق الأعظم جل جلاله، لكن هل علاقة للعبد مع ربه، كلها في مرتبة واحدة؟

الجواب: أن علاقة العبد مع ربه ليست كلها في مرتبة واحدة، فبينما تجده يؤدي الصلاة خوفًا من عذاب النار أو آداءًا للفريضة التي أمره بها، تجد ذات العبد يقيم النوافل وصلوات التطوع إيمانا منه بأنه يثاب أيضا ثوابًا زائدًا على ثواب الفريضة التي أداها. وهنا نستطيع وصف تلك المرتبة بأنها مرتبة الإحسان.

ويتم ذلك بالإقبال على الله في كثرة الشكر والذكر . وفي معرفة الوقار والمهابة والتعظيم لله جل جلاله، وذلك بمراعاة حرماته سرًا وعلانية، وبتلمس أوقات الإجابة، وبالسير إلى الله سبحانه وتعالى على نور من شرعه الشريف

يفهم هذا من حديث جبريل — عليه السلام- الطويل وفيه:

أخرج البخاري بسنده إلى عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ ﷺ قَالَ بَيْنَمَا نَحْنُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ إِذْ طَلَعَ عَلَيْنَا رَجُلٌ شَدِيدُ بَيَاضِ الثِّيَابِ شَدِيدُ سَوَادِ الشَّعَرِ لاَ يُرَى عَلَيْهِ أَثَرُ السَّفَرِ وَلاَ يَعْرِفُهُ مِنَّا أَحَدٌ حَتَّى جَلَسَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَأَسْنَدَ رُكْبَتَيْهِ إِلَى رُكْبَتَيْهِ وَوَضَعَ كَفَّيْهِ عَلَى فَخِذَيْهِ... قَالَ فَأَخْبِرْنِي عَنِ الإِحْسَانِ. قَالَ «أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ

فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ »..." الحديث[١]

قال الإمام النووي: (قوله –صلى الله عليه وسلم–: (الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فانه يراك) هذا من جوامع الكلم التى أوتيها –صلى الله عليه وسلم– لأنا لو قدرنا أن أحدنا قام فى عبادة وهو يعاين ربه سبحانه وتعالى لم يترك شيئا مما يقدر عليه من الخضوع والخشوع وحسن السمت واجتماعه بظاهره)[٢]

وقال الحافظ ابن حجر: (وقال النووي معناه إنك إنما تراعي الآداب المذكورة إذا كنت تراه ويراك لكونه يراك لا لكونك تراه فهو دائما يراك فأحسن عبادته وإن لم تره فتقدير الحديث فإن لم تكن تراه فاستمر على إحسان العبادة فإنه يراك قال وهذا القدر من الحديث أصل عظيم من أصول الدين وقاعدة مهمة من قواعد المسلمين وهو عمدة الصديقين وبغية السالكين وكنز العارفين ودأب الصالحين وهو من جوامع الكلم التي أوتيها –صلى الله عليه وسلم– وقد ندب أهل التحقيق إلى مجالسة الصالحين ليكون ذلك مانعا من التلبس بشيء من النقائص احتراما لهم واستحياء منهم فكيف بمن لا يزال الله مطلعا عليه في سره وعلانيته) [٣]

وقال الحافظ في موضع آخر: (قال الشيخ أبو محمد بن أبي جمرة اسم التقوى يعم جميع المؤمنين لكن الناس فيه على درجات قال الله تعالى ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا إذا ما اتقوا وآمنوا وعملوا الصالحات الآية فكل

---

١) صحيح البخاري، كتاب: الإيمان–باب: سؤال جبريل النبي –صلى الله عليه وسلم– عن الإيمان والإسلام والإحسان وعلم الساعة١/٢٧رقم٥٠، مسلم، كتاب: الإيمان– باب: باب مَعْرِفَةِ الإِيمَانِ وَالإِسْلاَمِ وَالْقَدَرِ وَعَلاَمَةِ السَّاعَة ١/٢٨رقم١٠٢

٢) شرح النووي١/١٥٧

٣) فتح الباري١/١٢٠

من دخل في الإسلام فقد اتقى أي وقى نفسه من الخلود في النار وهذا مقام العموم وأما مقام الخصوص فهو مقام الإحسان كما قال -صلى الله عليه وسلم- أن تعبد الله كأنك تراه انتهى) [١].

*****

١) فتح الباري ٢٧١/١٠

المبحث الثاني

مرتبة الإحسان في علاقة الإنسان مع أخيه الإنسان

توطئة:

إن البشرية على تعدد شعوبها واختلاف ألوانها ولغاتها فإن المولى عز وجل قد جعل الرابط بينهما هو الإحسان وعبر عنه القرآن الكريم بمصطلح التعارف.

قال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [١]

كما أنصف الشارع الحكيم وجعل حيثية التفاضل بين المؤمنين في ثلاثة أشياء: أولها: تقوى الله عزوجل وتعظيمه في السر والعلن.

أخرج الإمام أحمد في مسنده بسنده إلى أبي نضرة ﷺ عَمَنْ سَمِعَ خُطْبَةَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي وَسَطِ أَيَّامِ التَّشْرِيقِ أن رسول الله ﷺ قال"يَا أَيُّهَا النَّاسُ، أَلاَ إِنَّ رَبَّكُمْ وَاحِدٌ، وَإِنَّ أَبَاكُمْ وَاحِدٌ، أَلاَ لاَ فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى أَعْجَمِيٍّ، وَلاَ لِعَجَمِيٍّ عَلَى عَرَبِيٍّ، وَلاَ لأَحْمَرَ عَلَى أَسْوَدَ، وَلاَ أَسْوَدَ عَلَى أَحْمَرَ، إِلاَّ بِالتَّقْوَى،..[٢] الحديث"

وللإمام القرطبي كلام مهم يجمل بنا عرضه في هذا المقام ،شرحا لتلك الآية الكريمة قال الإمام القرطبي- رحمه الله-: (زجرهم عن التفاخر بالأنساب ، والتكاثر بالأموال ، والازدراء بالفقراء ، فإن المدار على التقوى. أي الجميع من آدم وحواء ، إنما الفضل بالتقوى.) [٣]

وثانيها: العلم والمقصود به (سائر العلوم الموصلة إلى تقوى الله عز وجل).

---

١) سورة الحجرات – آية ١٣

٢) مسند احمد ٢٨/٤٧٤رقم٢٣٤٨٩ وهو حديث (صحيح).

٣) الجامع لأحكام القرآن ١٦/٣٤٠-٣٤٤

قال تعالى: ﴿ أَمْ مَنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾[١]

فالمسلم الذي سلك طريق العلم وصار صاحبا له ورفيقا، يستزيد منه يوما بعد يوم يزداد به خشية لله عزوجل.

قال تعالى: ﴿.. إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴾[٢]

وثالث حيثيات التفاضل بين عباد الله المؤمنين: هو العمل الصالح والاجتهاد فيه.

قال تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [٣].

هذا وقد ذمت السنة النبوية المشرفة عددا من العادات التي كان يمارسها أهل الجاهلية الأولى، لكنها تتناقض الجانب الإنساني بين الخلائق التي جاء بها دين الإسلام ليزيل ما يجده الإنسان في نفسه تجاه أخيه الإنسان من تعصب لدين أو لعرق أو مذهب أو جنس.

نجد الإحسان في علاقة المسلم مع خدمه ومواليه ذلك في لومه ﷺالذي وجهه للصحابي الجليل أبي ذر الغفاري حينما عير أحد خدمه بأن أمه ذات لون أسود.

---

١) سورة الزمر– آية ٩

٢) سورة فاطر– آية٢٨

٣) سورة النساء– آية ٩٥

أخرج البخاري في صحيحه بسنده إلى الْمَعْرُورِ بْنِ سُوَيْدٍ قَالَ لَقِيتُ أَبَا ذَرٍّ بِالرَّبَذَةِ وَعَلَيْهِ حُلَّةٌ وَعَلَى غُلَامِهِ حُلَّةٌ فَسَأَلْتُهُ عَنْ ذَلِكَ فَقَالَ إِنِّي سَابَبْتُ رَجُلًا، فَعَيَّرْتُهُ بِأُمِّهِ، فَقَالَ لِي النَّبِيُّ ﷺ :"يَا أَبَا ذَرٍّ أَعَيَّرْتَهُ بِأُمِّهِ؟! إِنَّكَ امْرُؤٌ فِيكَ جَاهِلِيَّةٌ، إِخْوَانُكُمْ خَوَلُكُمْ جَعَلَهُمْ اللَّهُ تَحْتَ أَيْدِيكُمْ فَمَنْ كَانَ أَخُوهُ تَحْتَ يَدِهِ فَلْيُطْعِمْهُ مِمَّا يَأْكُلُ وَلْيُلْبِسْهُ مِمَّا يَلْبَسُ وَلَا تُكَلِّفُوهُمْ مَا يَغْلِبُهُمْ فَإِنْ كَلَّفْتُمُوهُمْ فَأَعِينُوهُم" (١)

فها هو النبي الكريم هنا يوجه أصحاب الجاه ممن أنعم الله عليهم بوجود خدم لهم ومعاونين لقضاء حوائجهم والقيام لهم بأعمال تشق على أصحابها، يوجههم إلى أن خدمة هؤلاء لهم لا تعني أن يحتقروهم أو يكلفوهم فوق طاقتهم أو أن يتناسوا كونهم إخوان لهم في الإنسانية.

بل تجاوز ذلك التوجيه بلزوم الاحترام لهم والتقدير لجهدهم، إلى أن يعاونوهم فيما يكلفونهم به من أعمال وكذا أن يحسنوا إليهم في المأكل والملبس.

قال الحافظ بن حجر: ("إنك امرؤ فيك جاهلية" أي خصلة من خصال الجاهلية ويظهر لي أن ذلك كان من أبي ذر قبل أن يعرف تحريمه فكانت تلك الخصله من خصال الجاهلية باقية عنده .. فبين له كون هذه الخصلة مذمومة شرعا وكان بعد ذلك يساوي غلامه في الملبوس وغيره أخذا بالاحوط وإن كان لفظ الحديث يقتضي اشتراط المواساة لا المساواه) (٢).

وقاال الحافظ: (وفي تقديم لفظ إخوانكم على خولكم إشارة إلى الاهتمام

---

١) صحيح البخاري، كتاب: الإيمان – باب : المعاصي من أمر الجاهلية ولا يكفر صاحبها بارتكابها إلا بالشرك ١/٢٠رقم ٣٠، وأخرجه: مسلم في صحيحه ، كتاب: الإيمان والنذور- باب: إطعام المملوك مما يأكل

٢) فتح الباري١/٨٧

بالأخوة ،وقوله: تحت أيديكم مجاز عن القدرة أو الملك، قوله: فليطعمه مما يأكل أي من جنس ما يأكل للتبعيض الذي دلت عليه من..فإن لم يجلسه معه فليناوله لقمة فالمراد المواساة لا المساواة من كل جهة لكن من أخذ بالأكمل كأبي ذر فعل المساواة وهو الأفضل فلا يستأثر المرء على عياله من ذلك وإن كان جائزا ..وهو يقتضي الرد في ذلك إلى العرف فمن زاد عليه كان متطوعا.. وفي الحديث النهي عن سب الرقيق وتعييرهم بمن ولدهم والحث على الإحسان إليهم والرفق بهم ويلتحق بالرقيق من في معناهم من أجير وغيره، وفيه عدم الترفع على المسلم والاحتقار له، وفيه المحافظة على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإطلاق الأخ على الرقيق فإن أريد القرابة فهو على سبيل المجاز لنسبة الكل إلى آدم أو المراد أخوة الإسلام ويكون العبد الكافر بطريق التبع أو يختص الحكم بالمؤمن) [١].

إن الرحمة العامة والإنسانية المجردة هي التي جعلت النبي الكريم ﷺ وعلى مدار عمر الدعوة المحمدية وحتى لحوقهﷺ بالرفيق الأعلى يحث البشر على لزومها وعدم الغفلة عنها في غير نص من نصوصه الشريفة.

أذكر منها على سبيل المثال لا الحصر ما رواه عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا– أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: « الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمُ الرَّحْمَنُ ارْحَمُوا مَنْ فِي الأَرْضِ يَرْحَمْكُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ، الرَّحِمُ شِجْنَةٌ مِن الرحمنِ ، فَمَن وصلَهَا وَصَلَهُ الله، ومن قطعها قطعهُ الله » [٢].

---

١) فتح الباري ١٧٤/٥

٢) أخرجه: البخاري ف التاريخ الكبير ٧ / ١٩٤، والترمذي في سننه كتاب البر والصلة–ما جاء في رحمة المسلمين ٣٢٣/٤رقم١٩٢٤ وقال أبو عيسى: حسن صحيح . والحاكم (١٧٥/٤ ، رقم ٧٢٧٤) ، والبيهقى فى شعب الإيمان، الخامس والسبعون من شعب الإيمان وهو باب:

قال المباركفوري: (قوله (الراحمون) لمن في الأرض من آدمى وحيوان محترم بنحو شفقة وإحسان ومواساة (يرحمهم الرحمن) أي: يحسن إليهم ويتفضل عليهم والرحمة مقيدة باتباع الكتاب والسنة فإقامة الحدود والانتقام لحرمة الله لا ينافي كل منهما الرحمة (ارحموا من في الأرض) قال الطيبي: أتي بصيغة العموم ليشمل جميع أصناف الخلق فيرحم البر والفاجر والناطق والبهم والوحوش والطير.. وفيه إشارة إلى أن إيراد من لتغليب ذوي العقول لشرفهم على غيرهم) [١]

لقد نادى رب العزة سبحانه وتعالى نداء عاما لجميع خلقه بأن يدعو ما ألقاه الشيطان في أنفسهم من ظلم بعضهم البعض معلنا سبحانه وتعالى أنه الحق المطلق والرحيم المطلق بهم حتى يقودهم إلى ترك الظلم فيما بينهم.

أخرج مسلم في صحيحه، بسنده إلى أَبِى إِدْرِيسَ الْخَوْلاَنِىِّ عَنْ أَبِى ذَرٍّ عَنِ النَّبِىِّ ﷺ فِيمَا رَوَى عَنِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنَّهُ قَالَ « يَا عِبَادِى إِنِّى حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِى وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا فَلاَ تَظَالَمُوا يَا عِبَادِى كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلاَّ مَنْ هَدَيْتُهُ فَاسْتَهْدُونِى أَهْدِكُمْ يَا عِبَادِى كُلُّكُمْ جَائِعٌ إِلاَّ مَنْ أَطْعَمْتُهُ فَاسْتَطْعِمُونِى أُطْعِمْكُمْ يَا عِبَادِى كُلُّكُمْ عَارٍ إِلاَّ مَنْ كَسَوْتُهُ فَاسْتَكْسُونِى أَكْسُكُمْ يَا عِبَادِى إِنَّكُمْ تُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا فَاسْتَغْفِرُونِى أَغْفِرْ لَكُم...) [٢] الحديث

قال الإمام النووي : (قوله تعالى: (إني حرمت الظلم على نفسي) قال العلماء: معناه تقدست عنه وتعاليت والظلم مستحيل في حق الله سبحانه وتعالى

في رحم الصغير وتوقير الكبير (٤٧٦/٧ ، رقم ١١٠٤٨)، ابن أبي شيبة في مصنفه كتاب: الأدب–ما ذكِر فِي الرّحمةِ مِن الثّوابِ.٣٣٨/٨رقم٢٥٨٦٤بجملة منه.

١) تحفة الأحوذي٦ /٤٣

٢) صحيح مسلم ، كتاب: البر والصلة والأدب– باب: تَحْرِيمِ الظُّلْمِ١٦/٨رقم ٦٧٣٧

كيف يجاوز سبحانه حدا وليس فوقه من يطيعه وكيف يتصرف في غير ملك والعالم كله في ملكه وسلطانه ، وأصل التحريم في اللغة المنع فسمي تقدسه عن الظلم تحريما لمشابهته للممنوع في أصل عدم الشئ) [١]

قوله تعالى: (وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا) ، أي: لا تتظالموا والمراد لا يظلم بعضكم بعضا وهذا توكيد لقوله تعالى (يا عبادي) وجعلته بينكم محرما وزيادة تغليظ في تحريمه)أ،هـ [٢]

بل لقد جعل الحق تبارك وتعالى أياما وأشهرا مخصوصة في العام حرم فيها القتال بين المسلمين وغيرهم ممن يجاهرونهم ويناصبونهم العداء ، ووصف ذلك التحريم أيما وصف في كتابه العزيز بقوله سبحانه: ﴿ إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ.. ﴾[٣]

وفي هذا إحسان إلى خلق الله –أي المحاربين منهم– بكف الجهد عنهم والتأهب الدائم للقتال وفي هذا ما فيه من الإشقاق والإرهاق، كما يفهم منه تحريم كافة المظالم أو معظمها، لأنه إذا كان القتال أو الجهاد–الذي هو ذروة سنام الأمر– قد حرم فإن ما دونه من أنواع المظالم من باب أولى.

قال الامام القرطبي: قوله تعالى : {فَلا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ}... لا تظلموا فيهن أنفسكم بارتكاب الذنوب ، لأن الله سبحانه إذا عظم شيئا من جهة واحدة صارت له حرمة واحدة وإذا عظمه من جهتين أو جهات صارت حرمته متعددة

---

١) شرح النووي ١٣٢/١٦

٢) المصدر السابق .

٣) سورة التوبة– آية ٣٦

فيضاعف فيه العقاب بالعمل السيء كما يضاعف الثواب بالعمل الصالح. فإن من أطاع الله في الشهر الحرام في البلد الحرام ليس ثوابه ثواب من أطاعه في الشهر الحلال في البلد الحرام. ومن أطاعه في الشهر الحلال في البلد الحرام ليس ثوابه ثواب من أطاعه في شهر حلال في بلد حلال.) [١]أ،هـ

إنها الرحمة العامة في أبهى صورها، إنها مقومات الإنسانية الكاملة في أعلى تجلياتها.

ومن العلاقات الإنسانية التي عنيت بها السنة النبوية علاقة الأخوة في الدين، وهذه العلاقة الجامع فيها بين أتباعها هو العقيدة الواحدة الملزمة للجميع بالإيمان بما أرسل به النبي الكريمﷺ من وحي السماء.

ومن رعاية النبي ﷺ لتلك العلاقة وعنايته بها عقد وثيقة آخى فيها بين المهاجرين-المسلمون من أهل مكة- والأنصار- المسلمون من أهل المدينة-

قَالَ ابْنُ إسْحَاقَ: (فَلَمّا أَذِنَ اللّهُ تَعَالَى لَهُ ﷺ فِي الْحَرْبِ وَبَايَعَهُ هَذَا الْحَيّ مِنْ الْأَنْصَارِ عَلَى الْإِسْلَامِ وَالنّصْرَةِ لَهُ وَلِمَنْ اتّبَعَهُ وَأَوَى إلَيْهِمْ مِنْ الْمُسْلِمِينَ أَمَرَ رَسُولُ اللّهِ ﷺ أَصْحَابَهُ مِنْ الْمُهَاجِرِينَ مِنْ قَوْمِهِ وَمَنْ مَعَهُ بِمَكّةَ مِنْ الْمُسْلِمِينَ بِالْخُرُوجِ إلَى الْمَدِينَةِ وَالْهِجْرَةِ إلَيْهَا ، وَاللّحُوقِ بِإِخْوَانِهِمْ مِنْ الْأَنْصَارِ ، وَقَالَ إنّ اللّهَ عَزّوَجَلّ قَدْ جَعَلَ لَكُمْ إخْوَانًا وَدَارًا تَأْمَنُونَ بِهَا . فَخَرَجُوا أَرْسَالًا) [٢].

ونجد ذلك في إنكاره ﷺ ما وقع بين غلامين من المهاجرين والأنصار من شجار كاد أن يشعل نار الفتنة بين الأنصار والمهاجرين.

---

١) الجامع لأحكام القرآن ١٣٢/٨-١٣٥

٢) سيرة ابن هشام ٣١٤/٢، الروض الأنف٢٨٩/٢

أخرج البخاري في صحيحه بسنده إلى جَابِرِ بْنِ عَبْدِ الله -رضي الله عنهما-. قَالَ: "كُنَّا فِي غَزَاةٍ، فَكَسَعَ [١] رَجُلٌ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ رَجُلاً مِنَ الأَنْصَارِ، فَقَالَ الأَنْصَارِيُّ: يَا لَلأَنْصَارِ، وَقَالَ الْمُهَاجِرِيُّ: يَا لَلْمُهَاجِرِينَ، فَسَمَّعَهَا اللهُ رَسُولَهُ ﷺ، قَالَ : مَا هَذَا ؟ فَقَالُوا: كَسَعَ رَجُلٌ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ رَجُلاً مِنَ الأَنْصَارِ، فَقَالَ الأَنْصَارِيُّ: يَا لَلأَنْصَارِ، وَقَالَ الْمُهَاجِرِيُّ : يَالَلْمُهَاجِرِينَ ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: دَعُوهَا ، فَإِنَّهَا مُنْتِنَةٌ . قَالَ جَابِرٌ: وَكَانَتِ الأَنْصَارُ حِينَ قَدِمَ النَّبِيُّ ﷺ أَكْثَرَ، ثُمَّ كَثُرَ الْمُهَاجِرُونَ بَعْدُ ، فَقَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ أُبَيٍّ : أَوَ قَدْ فَعَلُوا ، وَاللهِ ، لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ ، فَقَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ، رضي الله عنه: دَعْنِي ، يَا رَسُولَ اللهِ ، أَضْرِبْ عُنُقَ هَذَا الْمُنَافِقِ ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «دَعْهُ، لاَ يَتَحَدَّثُ النَّاسُ أَنَّ مُحَمَّدًا يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ»[٢].

فنبذ النبي ﷺ ما كان من عادات الجاهلية التي تحمل من العصبية والقبلية ما يقوض دعائم الإخاء التي أرساها النبي الكريمﷺ وراعى جانب الإحسان فيها، في ذلك المجتمع الناشئ وتلك الدولة الفتية.

وكما حرص النبي ﷺ على تدعيم أواصر المحبة وتفعيل روح الإنسانية لدى أتباعه حينما شدد على احترام المعاهدات بين المسلمين وأهل الكتاب وحذر من إيذائهم بأي لون من ألوان الإيذاء بل جعل النبي ﷺ من نفسه حجيجا يوم القيامة لمن ينتهك هذا التحذير ولا يلتزم به

فتجده ﷺ يصرح بقوله: « أَلاَ مَنْ ظَلَمَ مُعَاهِدًا أَوِ انْتَقَصَهُ أَوْ كَلَّفَهُ فَوْقَ طَاقَتِهِ

---

١) قوله فكسع بفتح الكاف والمهملتين أي ضربه على دبره. فتح الباري٦/٥٤٧

٢) صحيح البخاري: كتاب: المناقب- باب: ما ينهى من دعوى الجاهلية ٣/١٢٩٦رقم ٣٣٣٠ ، ومسلم في صحيحه، كتاب : البر والصلة والآداب — باب: نصر الأخ ظالما أو مظلوما ٨/١٩رقم ٦٧٤٧

أَوْ أَخَذَ مِنْهُ شَيْئًا بِغَيْرِ طِيبِ نَفْسٍ فَأَنَا حَجِيجُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ »[١]

بل وأبعد من ذلك أنه كانﷺ يوصي الابن- عبد الله بن عبد الله بن أبي سلول- بالإحسان إلى أبيه ولزوم الرفق معه، مع علمه بما يبطنه هذا الأب من النفاق.

قال الحافظ ابن حجر وعزاه لابن اسحق: (وبلغ عبد الله بن عبد الله بن أبي ما كان من أمر أبيه فأتى النبي ﷺ فقال بلغني إنك تريد قتل أبي فيما بلغك عنه فإن كنت فاعلا فمرني به فأنا أحمل إليك رأسه فقال بل ترفق به وتحسن صحبته قال فكان بعد ذلك إذا أحدث الحدث كان قومه هم الذين ينكرون عليه) [٢].

فها هو النبي ﷺ يضرب النموذج الأروع في الإحسان إلى الغير، بل ووصية الابن بأبيه مع عِظَم ما اقترفه هذا الأب المنافق – والذي كان النبي يعرفه بعينه، – فضلا عن إنكاره دعوى الجاهلية التي من شأنها تمزيق وحدة المسلمين، وألفتهم، وزرع الفتن والضغينة بينهم.

وتتنوع تلك العلاقات بين الأفراد بحسب درجة القرابة بين المسلمين وبعضهم البعض ، وبحسب ما يوثقها من روابط القرابة باختلاف درجاتها ، أو وثائق وعقود معتبرة ، على أنه كما قررت أولا فإن الرابط بين الجميع كما قرر الشرع الشريف ينبغي أن يكون هو الإحسان ، وقد اعتنت السنة النبوية ونبيها الأكرم أشد العناية بتلك العلاقات المخصوصة بين أفراد المجتمع المسلم ، وتناولتها بالحث على توطيدها والاهتمام بها وعدم إهمالها.

---

١) صحيح مسلم، كتاب: الفتن وأشراط الساعة – باب: ذِكْرِ الدَّجَّالِ وَصِفَتِهِ وَمَا مَعَهُ.٨/١٩٧رقم ٧٥٦٠

٢) الفتح ٨/٦٥٠

ويقودنا هذا السياق قودا الى الانتقال من الحديث عن الإحسان في أخوة الدين إلى الإحسان في علاقة المسلم مع الأبوين الذين أمر الحق تبارك وتعالى بوجوب طاعتهما، وجعل الإحسان إليهما أحد قضاءاته التي قضى بها في كتابه العزيز، فقد جعل الحق تبارك وتعالى تلك العلاقة قضاءا من قضاءاته سبحانه.

قال تعالى: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا..﴾ (١)

وعن برالوالدين نجد النبي الكريم ﷺ يحث عليه ويشدد على لزومه مؤكدا المعنى الذي جاء القرآن الكريم لتقريره.

أخرج البخاري في صحيحه بسنده إلى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ ﷺ قَالَ: سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَىُّ الْعَمَلِ أَفْضَلُ قَالَ « الصَّلاَةُ لِوَقْتِهَا ». قَالَ قُلْتُ ثُمَّ أَىٌّ قَالَ: « بِرُّ الْوَالِدَيْنِ ». قَالَ قُلْتُ ثُمَّ أَىٌّ قَالَ « الْجِهَادُ فِى سَبِيلِ اللَّهِ ». فَمَا تَرَكْتُ أَسْتَزِيدُهُ إِلاَّ إِرْعَاءً عَلَيْهِ. (٢)

قال النووي: (وأما بر الوالدين فهو الاحسان إليهما وفعل الجميل معهما وفعل ما يسرهما ويدخل فيه الإحسان إلى صديقهما كما جاء فى الصحيح ان من أبر البر أن يصل الرجل أهل ود أبيه وضد البر العقوق) (٣).

وقال بدر الدين العيني: (وفيه بر الوالدين بالقيام بمصالحهما من قضاء الديون وغيره) (٤).

---

١) سورة الإسراء-آية٢٣

٢) صحيح البخاري ،كتاب: الأدب- باب: البر والصلة ٥/٢٢٢٧رقم ٥٦٢٥ ، صحيح مسلم، كتاب: الإيمان- باب: بَيَانِ كَوْنِ الإِيمَانِ بِاللَّهِ تَعَالَى أَفْضَلَ الأَعْمَالِ ١/٦٣رقم ٢٦٤

٣) شرح النووي٢/٧٦

٤) عمدة القاري١٤/١٨٧

ولما كان عنفوان الشباب دافع للابن أن يعق والده أو يتصادم معه ، كانت الوصية له بالأب دون أن يوصي الأب بولده.

فنجد السياق القرآني الشاهد لهذا المعنى، هو حوار سيدنا إبراهيم مع والده.

قال تعالى: ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا. إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا. يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا . يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا. يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا .قَالَ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا . قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا. وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَى أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا ﴾[1].

وفي هذا السياق دعوة لجميع الأبناء بلزوم الأدب مع آبائهم، أسوة بأدب سيدنا إبراهيم الذي كان نبيا، ومع ذلك لم تمنعه حفاوة ربه به أن يتحدث مع والده بأدب جم ، على أن والده كان مشركا يعبد الأوثان، فما بال القارئ الكريم بما دون ذلك من تصرفات لبعض الآباء؟!

والتي في جملتها لا تخرج عن كونها انفعالات لحظية أو أوامر صارمة أو تحكمات وضعيه جلها أو غالبها راجع إلى كبر السن أو المرض أو رعاية مصلحة هذا الابن أو تلك البنت.

ولذا نهى الشارع الحكيم الأبناء عن اقتراف أدنى درجات العقوق وهي الكلمة الواحدة التي توحي بالتضجر والتأفف منهما.

---

١) سورة مريم- الآيات٤١-٤٨

قال تعالى: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾[١]

قال الإمام القرطبي: (فلا تقل لهما أف (أي لا تقل لهما ما يكون فيه أدنى تبرم وعن أبي رجاء العطاردي قال: الأف الكلام القذع الرديء الخفي ، وقال مجاهد: معناه إذا رأيت منهما في حال الشيخ الغائط والبول الذي رأياه منك في الصغر فلا تقذرهما وتقول أف والآية أعم من هذا والأف والتف وسخ الأظفار ويقال لكل ما يضجر ويستثقل : أف له قال الأزهري : والتف أيضا الشيء الحقير وقرىء أف منون .. فكثر استعماله حتى ذكر في كل ما يتأذى به) [٢]

بل وأوصى بعدم نهرهما حتى لا يشعرا بثقل وجودهما في حياة هذا الابن

قال الامام القرطبي: (قال علماؤنا: وإنما صارت قولة أف للأبوين أردأ شيء لأنه رفضهما رفض كفر النعمة وجحد التربية ورد الوصية التي أوصاه في التنزيل وأف كلمة مقولة لكل شيء مرفوض..قوله تعالى:(ولاتنهرهما (النهر : الزجر والغلظة) وقل لهما قولا كريما (أي لينا لطيفا مثل : يا أبتاه ويا أماه من غير أن يسميهما ويكنيهما) [٣]

فنص الشارع الحكيم على لزوم مقام الإحسان نصا لا تمحل فيه، ولا تأويل.

ومن عناية السنة بهذا المعنى وهديه الشريف ﷺ فيه، أن وجه ابن عمه علي بن أبي طالب ، للذهاب لدفن أبيه أبي طالب ، علما بأنه مات على الكفر وأبى أن يؤمن بما جاء به النبي الكريم ﷺ ، ولذا فقد وصفه ابنه الإمام علي بن أبي طالب بالشيخ

---

١) سورة الإسراء-آية٢٣

٢) الجامع لأحكام القرآن١٠/٢٤٣

٣) المصدر السابق.

الضال.

أخرج أبوداود، في سننه، بسنده إلى عَلِيٍّ ﷺ قَالَ: قُلْتُ لِلنَّبِيِّ ﷺ :إِنَّ عَمَّكَ الشَّيْخَ الضَّالَّ قَدْ مَاتَ. قَالَ: « اذْهَبْ فَوَارِ[١] أَبَاكَ ثُمَّ لاَ تُحْدِثَنَّ شَيْئًا حَتَّى تَأْتِيَنِى ». فَذَهَبْتُ فَوَارَيْتُهُ وَجِئْتُهُ فَأَمَرَنِى فَاغْتَسَلْتُ وَدَعَا لِى"[٢].

قال محمد شمس الحق العظيم آبادي: (إن عمك) يعني أباه أبا طالب (قال) النبي ﷺ (ثم لا تحدثن) من الإحداث أي لا تفعلن (فواريته) أي أبا طالب (وجئته) أي النبي ﷺ (فأمرني) النبي ﷺ بالاغتسال)[٣]

قال الإمام القرطبي: (وأما الكفار..- فذكر حديث على السابق- قال: ويستحب في القبر سعته وإحسانه ؛ لما رواه ابن ماجة عن هشام بن عامر ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: "احفروا وأوسعوا وأحسنوا[٤] "[٥]

وما هذا إلا لكرامة هذا الإنسان وكذا لعلاقة الأبوة الحانية التي كانت بين علي وأبيه أبو طالب.

---

١) فواره : التواري : الاستتار ، أراد به الدفن

٢) سنن أبو داود، كتاب: الجنائز- باب: الرَّجُلِ يَمُوتُ لَهُ قَرَابَةٌ مُشْرِكٌ ٣/٢٠٦رقم٣٢١٦، قلت: وهو حديث (صحيح)، وأخرجه: النسائي في الكبرى، كتاب: الجنائز وتمني الموت- باب: مواراة المشرك١/٦٤٧رقم٢١٣٣، عبد الرزاق في مصنفه، كتاب: أهل الكتاب- باب: غسل الكافر وتكفينه ٦/٣٩رقم٩٩٣٦

٣) عون المعبود ٩/٢٤

٤) سنن ابن ماجة، كتاب: الجنائز- باب: ما جاء في حفر القبر١/٤٩٧رقم١٥٦٠ قلت: وهو حديث (صحيح).

٥) الجامع لأحكام القرآن ٦/١٤١- ١٤٣

فوجهه النبي ﷺ إلى فعل الصواب تجاه أبيه حتى وإن كان باقيا على كفره، تقديسا لتلك العلاقة الفطرية بين الابن والوالد.

قلت: فإذا كانت عناية السنة النبوية المطهرة ونبيها الكريم ﷺ قد بلغت هذا الحد من احترام تلك العلاقات بين الإنسان ووالده وإن كان ميتا فما بال القارئ الكريم بعنايتها بتلك العلاقات حال حياته؟!

تعقيب:

على الجانب الآخر فإن هناك بعضا من الآباء ينبغي أن يكونوا عونا لأبنائهم على برهم، حيث كان ولا يزال بعضا من الآباء والأمهات يتعسفون في مطالبة الأبناء ببرهم بطلب أشياء فيها تعدي على شؤونهم الخاصة واستقرار أسرهم الموكل إليهم رعايتها تارة، ومحاولات للاستحواذ على ممتلكاتهم تارة أخرى.

ولا تجد لهم متمسكا لتلك الممارسات مع الأبناء إلا الاتكاء على خطاب الشرع الشريف لهؤلاء الأبناء بلزوم الطاعة لهما فيقودهم ذلك إلى الاعتداء على ممتلكات الأبناء الخاصة والإجحاف بهم أحيانا وفي هذا ما فيه من شحذ النفوس بالكيد والعداء وبالتالي فساد تلك العلاقة الإنسانية الراقية التي ينبغي تنميتها والحفاظ عليها بحكم خطاب الشرع الشريف، وكذا بحكم الطبع والفطرة السليمة.

ثم إذا بحثنا عن متمسك هذا البعض من الآباء أو الأمهات ممن لم يعو قضية إعانة الأبناء على برهم.

تجدهم يتمسكون بحديث رسول الله ﷺ "أَنْتَ وَمَالُكَ لِأَبِيكَ"[1]

---

١) أخرجه: الطبراني في الأوسط ٢٤٦/١رقم٨٠٦، ، والبيهقي في الكبرى ، وأحمد في مسنده ٢٠٤/٢رقم٦٩٠٢

دون معرفة ما يتعلق بهذا التوجيه من معان ، وقد راجعت الروايات الواردة في هذا الحديث ، فوجدت أن سببها ، مخاصمة بين أب وابنه في دين للابن على الأب.

أخرج ابن حبان في صحيحه، بسنده إلى عائشة – رضي الله عنهما– : "أن رجلا أتى رسول الله ﷺ يخاصم أباه في دين عليه ، فقال نبي الله ﷺ " أنت ومالك لأبيك "[١].

فترى أيها القارئ الكريم أن هذا الهدي النبوي ورد في شأن دين ومخاصمة بين الأب وابنه، ولم يرد على الإطلاق.

وعلى فرض أنه على الإطلاق فإن صواب معناه بخلاف ما يفهمه بعض من الآباء .

قال أبو حاتم: معناه أنه –صلى الله عليه وسلم– زجر عن معاملته أباه بما يعامل به الأجنبيين وأمر ببره والرفق به في القول والفعل معا إلى أن يصل إليه ماله فقال له : (أنت ومالك لأبيك) لا أن مال الابن يملكه الأب في حياته من غير طيب نفس من الابن به[٢].

إن تلك التشغيبة تكاد تكون قديمة حديثة، حيث تناولها شراح الحديث وفقهاء الأمة منذ زمن بعيد بالشرح والتصويب لما قد يقع من خطأ في أذهان البعض تجاه هذا النص النبوي الشريف.

قال أبو جعفر الطحاوي–رحمه الله– (فذهب قوم إلى أن ما كسبه الابن من

---

١) صحيح ابن حبان ،كتاب: البر والإحسان– باب: حق الوالدين٢/١٤٢رقم٤١٠،وهو حديث (صحيح).

٢) صحيح ابن حبان،٢/١٤٢رقم ٤١٠

مال فهو لأبيه واحتجوا في ذلك بهذه الآثار وخالفهم في ذلك آخرون فقالوا ما كسب الابن من شيء فهو له خاصة دون أبيه ، وقالوا قول النبي ﷺ هذا ليس على التمليك منه للأب كسب الابن ، وإنما هو على أنه لا ينبغي للإبن أن يخالف الأب في شيء من ذلك وأن تجعل أمره فيه نافذا كأمره فيما يملك. ألا تراه يقول "أنت ومالك لأبيك" فلم يكن الابن مملوكا لأبيه بإضافة النبي ﷺ إياه فكذلك لا يكون مالكا لماله بإضافة النبي ﷺ إليه وقد حدثنا فهد قال ثنا محمد بن سعيد قال ثنا أبو معاوية عن الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: ما نفعني مال قط ما نفعني مال أبي بكر فقال أبو بكر –رضي الله عنه– إنما أنا ومالي لك يا رسول الله فلم يرد أبو بكر بذلك أن ماله ملك للنبي ﷺ دونه ولكنه أراد أن أمره ينفذ فيه وفي نفسه ، فكذلك قوله: "أنت ومالك لأبيك" فهو على هذا المعنى أيضا والله أعلم ، وقد روى عن رسول الله ﷺ "حرم أموال المسلمين كما حرم دماؤهم" ولم يستثن في ذلك والدا ولا غيره)[1]

وقال ابن ابي شيبة بعد أن أخرج الحديث وذُكِرَ أَنَّ أَبَا حَنِيفَةَ ، قَالَ : لاَ يَأْخُذُ مِنْ مالِهِ إِلاَّ أَنْ يَكُونَ مُحْتَاجًا فَيُنْفِقُ عَلَيْهِ[2].

قلت: ويؤيد هذا الترجيح من أن المقصود النفقة، ما ورد في بعض طرق الحديث

---

١) شرح معاني الآثار٤/١٥٨رقم ٥٦٩٤، ٥٦٩٥

٢) مصنف ابن ابي شيبة،كتاب: الرد على أبي حنيفة– باب: إِنْفَاقُ الأَبِ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ مَالِ وَلَدِه ١٤/١٩٧رقم٣٧٣٧٠

من زيادة جملة:(إن أولادكم من أطيب كسبكم . فكلوا من أموالهم) [١].

فها هي جمهرة من علماء الأمة وفقهاؤها يقررون أن مراد رسول الله ﷺ من توجيهه السابق، إنما المقصود به النفقة الواجبة، وهذا لا يناقض شرع الحق تبارك وتعالى في بر الوالدين أو الإحسان إليهما إنما يؤكده ويدعمه.

فإذا انتقلنا إلى صلة الأرحام والتي فاقت عناية الشرع الشريف بها أية علاقة

ويكفي للتدليل على عناية السنة بتلك العلاقة عناية رب العزة سبحانه وتعالى بها والحث على لزومها وعدم إهمالها

أخرج البخاري في صحيحه بسنده إلى أبي هريرة رضي الله عنه : عن النبي ﷺ قال (إن الرحم شجنة [٢] من الرحمن ، فقال الله من وصلك وصلته ومن قطعك قطعته) [٣]

ونجد أن الصدارة فيها إنما حازت عليها الأم التي هي أحد ركني علاقة الوالدية، بيد أنها نالت القدح المعلى من عناية الشرع الشريف بحقها وبرها

ونجده ﷺ يؤكد على أن أقوى تلك العلاقات علاقة الأم بأبنائها وتليها ، علاقة الأب بأبناءه.

أخرج البخاري في صحيحه بسنده إلى أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى

---

١) مصنف ابن ابي شيبة،كتاب: الرد على أبي حنيفة- باب: إِنْفَاقُ الأَبِ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ مَالِ وَلَدِه ١٤/١٩٦رقم٣٧٣٦٦، وابن ماجة في سننه، كتاب:التجارات- باب: ماللرجل من مال ولده ٢/٧٦٩رقم٢٢٩١

٢) شِجْنَة، وشُجْنة بضم الشين قال أبو عبيد: معناه القرابة متشبك بعضها ببعض كاشتباك العروق.. وهي كالغصن يكون من الشجرة أو كلمة في نحو هذا يوافق معناه. الزاهر فى معانى كلمات الناس١/٣٥٣، المحيط في اللغة ٢/٨٥

٣) صحيح البخاري، كتاب: الأدب- باب: من وصل وصله الله٥/٢٢٣٢رقم٥٦٤٢، ٥٦٤٣

رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ مَنْ أَحَقُّ النَّاسِ بِحُسْنِ صَحَابَتِي قَالَ « أُمُّكَ ». قَالَ ثُمَّ مَنْ قَالَ: « ثُمَّ أُمُّكَ ». قَالَ ثُمَّ مَنْ قَالَ « ثُمَّ أُمُّكَ ». قَالَ ثُمَّ مَنْ قَالَ « ثُمَّ أَبُوكَ »[١]

قال الإمام النووي: الصحابة هنا .. بمعنى الصحبة ، وفيه: الحث على بر الاقارب وأن الأم أحقهم بذلك ثم بعدها الأب ثم الأقرب فالأقرب قال العلماء وسبب تقديم الأم كثرة تعبها عليه وشفقتها وخدمتها ومعاناة المشاق في حمله ثم وضعه ثم إرضاعه ثم تربيته وخدمته وتمريضه وغير ذلك ونقل الحارث المحاسبي إجماع العلماء على أن الام تفضل في البر على الاب، وحكى القاضي عياض خلافا في ذلك، فقال الجمهور: بتفضيلها ، وقال بعضهم: يكون برهما سواء قال ونسب بعضهم هذا إلى مالك والصواب الاول لصريح هذه الاحاديث في المعنى المذكور والله اعلم. قال القاضي: واجمعوا على أن الام والاب آكد حرمة في البر) [٢]

وعلل الإمام النووي هذا التكرار بأنه حرمة لمقام الأم الذي لا يدانيه مقام

قال الإمام النووي: (اقتصر هنا على الأمهات لأن حرمتهن آكد من حرمة الآباء ولهذا قال ﷺ حين قال له السائل من أبر؟ قال: أمك ثم أمك ثلاثا ،ثم قال في الرابعة: ثم أباك ولأن أكثر العقوق يقع للأمهات ويطمع الأولاد فيهن) [٣]

وفي تطبيق عملي راق لما حث عليه النبي ﷺ من العناية بعلاقة الأمومة نراه يأذن لأسماء بنت أبي بكر حينما استأذنته في زيارة أمها لها وقد كانت لا تزال على

---

١) صحيح البخاري، كتاب: الأدب- باب: من أحق الناس بحسن الصحبة ٥/٢٢٢٧رقم ٥٦٢٦ ، ومسلم في البر والصلة والآداب، باب: بر الوالدين وأنهما أحق به ٢/٨ رقم ٦٦٦٤

٢) شرح النووي ١٠٢/١٦

٣) شرح النووي١٢/١٢

كفرها

أخرج البخاري في صحيحه بسنده إلى أَسْمَاءَ بِنْتِ أَبِي بَكْرٍ، قَالَتْ: قَدِمَتْ عَلَيَّ أُمِّي وَهِيَ مُشْرِكَةٌ فِي عَهْدِ قُرَيْشٍ إِذْ عَاهَدَهُمْ، فَاسْتَفْتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ قَدِمَتْ عَلَيَّ أُمِّي وَهْيَ رَاغِبَةٌ أَفَأَصِلُ أُمِّي، قَالَ: « نَعَمْ صِلِي أُمَّكِ »[١].

كما يدعم النبي الكريمﷺ تلك العلاقة مهما طالت مدتها إذ قد يظن هذا الابن أنها تنتهي أو تتلاشى بتقدم عمر الوالدين ، فيوجه هذا الابن الذي حمل أمه على أكتافه يطوف بها حول البيت.

وأما ما هو مشاهد في عصرنا الحاضر من عقوق باطن وظاهر من بعض الأبناء تجاه آبائهم فإنما هو من عمل الشيطان وتسلطه عليهم والإسلام منه برئ.

أخرج الفاكهي بسنده إلى عامر بن يحيى، قال : إن رجلا كان يطوف بالبيت يحمل أمه على ظهره ، وهو يقول: أحمل أمي وهي الحماله[٢] ترضعني الدرة والعلاله[٣]

---

١) صحيح البخاري، كتاب: الهبة وفضلها – باب : الهدية للمشركين ٢/٩٢٤رقم٢٤٧٧ ، باب: صلة المرأة أمها ولها زوج ٥/٢٢٣٠رقم٥٦٣٤، ومسلم في صحيحه، كتاب: الزكاة – باب: فضل النفقة والصدقة على الأقربين٣/ ٨١رقم٢٣٧٢

٢) الحمال أصلها من الحمل امرأة ، وشجرة ذات حمل. وعلى ظهره حمل. وامرأة حامل. ..وتحاملت الشيء: احتملته على مشقة.. ومنه قوله تعالى: " حَمَلَتْ حَمْلاً خفيفاً " . قال ابن السكيت: الحَمْلُ ما كان في بطنٍ أو على رأس شجرةٍ. والحِمْلُ بالكسر: ما كان على ظهرٍ أو رأسٍ. يقال: امرأة حامِلٌ وحامِلَةٌ، إذا كانت حُبْلى. فمن قال حامِلٌ قال هذا نعتٌ لا يكون إلا للإناث. ومن قال حامِلَةٌ بناء على حَمَلَتْ فهي حامِلَةٌ.. وحَمَلْتُ به حَمَالَةً بالفتح، أي كَفَلتُ. وحَمَلْتُ إدْلاَلَهُ واحْتَمَلْتُ، بمعنىً . الصحاح في اللغة ١/١٤٧، أساس البلاغة ١/٩٨،القاموس المحيط ١/١٢٧٧

٣) (العُلالَة) ما يتلهى به، وبَقِيَّة اللبنِ في الضَّرْع، وقيل: هو اللبَنُ بعد الدَّرَّة ، وقيل: إذا حُلِبت الناقةُ بالغَداة والعشِيِّ وَوَسَط النهار فتِلك الحَلْبة هي العُلالَة وقد عالَّت الناقةُ والاسم العِلاَل. المخصص ٢/١٤٧، المحكم والمحيط الأعظم ١/٩٣، المعجم الوسيط٢/٦٢٣

هل يجزين والد فعاله فقال له عمر ﷺ : « لا ولا طلقة » ، فقال عمر : « لوددت أن أمي أسلمت فأحملها كما حملت أمك كان أحب إلي مما طلعت عليه الشمس أو غربت »[١]

كما جعل الحق تبارك وتعالى باب الإحسان واسعا تناول الأقارب وغيرهم ممن لا يتصور أن ينالهم هذا الإحسان.

قال تعالى: ﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾ [٢]

ويجمل بنا أن نلقيه على بقية أفراد العلاقات التي تناولها الحق تبارك وتعالى وجعلها أولى بالإحسان إليها والوصية بها بهذا الترتيب العجيب الذي توافقه العقول اللبيبة والفطر السليمة.

وإذا أردنا أن نرتب درجات القرابة طبقا لما ورد به الخطاب النبوي للمكلفين ، نجده ﷺ رتب درجات القرابة ترتيبا دقيقا

أخرج الطبراني بسنده إلى بن ناجية المجاشعيﷺ قال : دخلت على رسول الله ﷺ فقلت : يا رسول الله ربما فضلت لي الفضيلة خبأتها للنائبة وابن السبيل ؟ فقال رسول اللهﷺ أُمَّكَ وَأَبَاكَ ، أُخْتَكَ ، وَأَخَاكَ ثُمَّ أَدْنَاكَ ، أَدْنَاكَ [٣]، وعند ابن حبان بلفظ :"..يَا أَيُّهَا النَّاسُ ، يَدُ الْمُعْطِي الْعُلْيَا ، وَابْدَأْ بِمَنْ تَعُولُ ، أُمَّكَ وَأَبَاكَ ، أُخْتَكَ ،

---

١) أخبار مكة ح٦١٣

٢) سورة النساء- آية ٣٦

٣) صحيح ابن حبان، كتاب: التاريخ- باب: كتب النبي صلى الله عليه و سلم١٤/٥١٧رقم ٦٥٦٢ ، والطبراني في الكبير٨/٧٨رقم ٧٤١٣

وَأَخَاكَ ثُمَّ أَدْنَاكَ ، أَدْنَاكَ .." الحديث

قال الإمام القرطبي: (أما الجار[١] فقد أمر الله تعالى بحفظه والقيام بحقه والوصاة برعي ذمته في كتابه وعلى لسان نبيه) [٢]

ونجده ﷺ يفيض من سنته الشريفة (أقوالا وأفعالا) مؤكدا على هذا المعنى ، وكذا نجدها في أفعاله ﷺ مثل عيادته لعمه أبو طالب وكان لا يزال على شركه

أخرج الحاكم في المستدرك ، بسنده إلى أنس بن مالك ﷺ : أن أبا طالب مرض فثقل فعاده النبي ﷺ فقال: يا ابن أخي ادع ربك الذي بعثك أن يعافيني، فقال النبي ﷺ: "اللهم اشف عمي" فقال: كأنما نشط من عقال ، فقال أبو طالب: إن ربك بعثك ليطيعك ، قال: وأنت يا عم إن أطعت الله ليطيعنك"[٣]

فانظر كيف حقق جانب الإحسان في علاقته مع قرابته وإن كان أصحابها على غير دينه.

فإذا انتقلنا إلى الجار المخالف في العقيدة وليس من ذوي القرابة، كيف كان إحسان الجناب النبوي تجاهه؟

نجدها في عيادته لجاره اليهودي عندما مرض وكان قد اعتاد ﷺ رؤيته.

أخرج ابن أبي شيبة بسنده إلى أَنَسٍﷺ ، قَالَ : كَانَ شَابٌّ يَهُودِيٌّ يَخْدُمُ النَّبِيَّ

---

١) قال الحافظ ابن حجر: (قال أبو عبد الله–أي البخاري– ذي القربى القريب والصاحب بالجنب الغريب.فتح الباري٥/١٧٤

٢) الجامع ١٨٣/٥

٣) المستدرك ، كتاب: الدعاء والتكبير والتهليل والتسبيح والذكر١/٧٢٧رقم ١٩٩١، والطبراني ف الأوسط ٤/٢٠٠رقم ٣٩٧٣، وابن أبي شيبة في مصنفه ٣/٣٥٩ رقم ١٢٠٥٠

ﷺ فَمَرِضَ فَأَتَاهُ النَّبِيُّ ﷺ يَعُودُهُ [١].

وكذا في وقوفه ﷺ في جنازة اليهودي التي مرت به، بل وتجاوز فعله الشريف أمره لصحابته الكرام أن يقفوا لها ولما يمر بهم بعدا من جنائز يهود.

أخرج البخاري في صحيحه بسنده إلى جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ، قَالَ: مَرَّتْ بِنَا جَنَازَةٌ، فَقَامَ لَهَا النَّبِيُّ ﷺ، وَقُمْنَا بِهِ، فَقُلْنَا يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّهَا جَنَازَةُ يَهُودِيٍّ، قَالَ: "إِذَا رَأَيْتُمُ الْجِنَازَةَ فَقُومُوا"[٢].

ثم ما كان من الصحابة الكرام إلا أن امتثلوا لهديه الشريف تطبيقًا عمليًا.

أخرج البخاري من حديث سَهْلِ بْنِ حُنَيْفٍ وَقَيْسِ بْنِ سَعْدٍ عَنْ عَبْدِ الرَّحْمنِ بْنِ أَبِي لَيْلَى، قَالَ: كَانَ سَهْلُ بْنُ حُنَيْفٍ وَقَيْسُ بْنُ سَعْدٍ قَاعِدَيْنِ بِالْقَادِسِيَّةِ، فَمَرُّوا عَلَيْهِمَا بِجَنَازَةٍ فَقَامَا، فَقِيلَ لَهُمَا إِنَّهَا مِنْ أَهْلِ الأَرْضِ، أَيْ مِنْ أَهْلِ الذمَّةِ؛ فَقَالاَ: إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ مَرَّتْ بِهِ جَنَازَةٌ فَقَامَ، فَقِيلَ لَهُ إِنَّهَا جَنَازَةُ يَهُودِيٍّ، فَقَالَ: أَلَيْسَتْ نَفْسًا"؟![٣].

فها أنت ترى كم كان احترامه ﷺ للنفس الإنسانية بغض النظر عن كونها موافقة أم مخالفة في العقيدة أو المذهب.

قال الحافظ ابن حجر: (ومقتضى التعليل بقوله أليست نفسا أن ذلك يستحب لكل جنازة وإنما اقتصر في الترجمة على اليهودي وقوفا مع لفظ الحديث) [٤]

ونجدها في عفوه ﷺ عن أهل مكة بعد الفتح الأعظم وبعد تمكنه من أهل

---

١) مصنف ابن أبي شيبة ، باب: في عيادة الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى.٣٥٩/٣

٢) صحيح البخاري ،كتاب الجنائز- باب: من قام لجنازة يهودي

٣) صحيح البخاري ،كتاب الجنائز- باب: من قام لجنازة يهودي ، ومسلم في صحيحه كتاب الجنائز-باب: الْقِيَامِ لِلْجَنَازَةِ ٥٨/٣رقم٢٢٦٩

٤) فتح الباري ١٨١/٣

مكة برهم وفاجرهم ، حينما قال لهم النبي ﷺ أن:« اذْهَبُوا فَأَنْتُمُ الطُّلَقَاءُ [١] ».

ويصف لنا كتاب السير ذلك في كتبهم

قال ابن هشام: (قال ابن اسحاق فحدثني بعض أهل العلم أن رسول الله ﷺ قام على باب الكعبة، فقال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له صدق وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده، ألا كل مأثرة أو دم أو مال يُدعى فهو تحت قدمي هاتين إلا سُدانة البيت وسقاية الحاج، ألا وقتيل الخطأ شبه العمد بالسوط والعصا، ففيه الدية مغلظة مائة من الإبل أربعون منها في بطونها أولادها

يا معشر قريش: إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها

بالآباء الناس من آدم وآدم من تراب ثم تلا هذه الآية { يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبًا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم.. }

ثم قال: "يا معشر قريش ما تروني أني فاعل فيكم؟ قالوا خيرا أخ كريم وابن اخ كريم. قال: "اذهبوا فأنتم الطلقاء") [٢].

جاء ذلك في تعامله مع الأعراب ممن كان يجهل منهم عليه

أخرج البخاري في صحيحه بسنده إلى أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه، قَالَ: كُنْتُ أَمْشِي مَعَ النَّبِيِّ ﷺ، وَعَلَيْهِ بُرْدٌ نَجْرَانِيٌّ غَلِيظُ الْحَاشِيَةِ، فَأَدْرَكَهُ أَعْرَابِيٌّ، فَجَذَبَهُ جَذْبَةً شَدِيدَةً، حَتَّى نَظَرْتُ إِلَى صَفْحَةِ عَاتِقِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم، قَدْ أَثَّرَتْ بِهِ

---

١) (الطُّلَقاءُ) هو بضم الطاء وفتح اللام وبالمد، وهم الذين أسلموا من أهل مكة يوم فتح مكة، وهو جمع طليق يقال ذاك لمن أطلق من أسار أو وثاق. قال القاضي في المشارق: قيل لمسلمى الفتح الطلقاء لمن النبي –صلى الله عليه وسلم– عليهم.شرح النووي١٥٣/٧

٢) السيرة النبوية ٧٣/٥، ٧٤

حَاشِيَةُ الرِّدَاءِ مِنْ شِدَّةِ جَذْبَتِهِ، ثُمَّ قَالَ: مُرْ لِي مِنْ مَالِ اللهِ الَّذِي عِنْدَكَ؛ فَالْتَفَتَ إِلَيْهِ، فَضَحِكَ، ثُمَّ أَمَرَ لَهُ بِعَطَاءٍ"[١]

قال الإمام النووي: (فيه احتمال الجاهلين والاعراض عن مقابلتهم ودفع السيئة بالحسنة وإعطاء من يتالف قلبه والعفو عن مرتكب كبيرة لا حد فيها بجهله واباحة الضحك عند الأمور التي يتعجب منها في العادة وفيه كمال خلق رسول الله صلى الله عليه و سلم وحلمه وصفحه الجميل) [٢].

وكذا تجد عنايته – صلى الله عليه وسلم– ورحمته العامة بالعالمين في حاله – صلى الله عليه وسلم– مع المنافقين في المدينة تراه ﷺ حينما طُلب منه القصاص منهم ومحاسبتهم على بعض ما صدر منهم ، يقول ﷺ : « دَعْهُ لاَ يَتَحَدَّثُ النَّاسُ أَنَّ مُحَمَّدًا يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ »[٣].

ومع علمه بما كانوا يبطنونه من عداوة للنبيﷺ وأصحابه المخلصين ﷺ وتربصهم بهم الدوائر، إلا أنه كان يتغاضى عنهم بل كان ﷺ يخالطهم ويتعامل معهم ويسمع منهم. ولم يلجأ النبيﷺ رغم قدرته على ذلك إلى استخدام القوة ضد

---

١) صحيح البخاري كتاب: الخمس– باب: ما كان النبي –صلى الله عليه وسلم– يعطي المؤلفة قلوبهم وغيرهم من الخمس ونحوه٣/١١٤٨رقم ٢٩٨٠ ، ومسلم في الزكاة باب إعطاء من سأل بفحش وغلظة ١٠٣/٣ رقم ٢٤٧٦

٢) شرح النووي١٤٧/٧

٣) أخرجه: البخاري في صحيحه ، كتاب: التفسير– باب: قوله { إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله }١٨٦٣/٤رقم ٤٦٢٤، ومسلم في صحيحه ،كتاب: البر والصلة والأدب– باب: نصر الأخ ظالما أو مظلوما ١٩/٨رقم ٦٧٤٨ واللفظ لهما ، من حديث طويل.

أصحاب هذه القلوب السقيمة. كما لم يحرمهم النبيﷺ من أي من حقوقهم المدنية، فكانوا يتمتعون بحقوق المواطنة كاملة مثل المسلمين، وكان النبيﷺ يسمح لهم بأن يدلوا بآرائهم في قضايا المجتمع، وأخذ نصيبهم من عطاء بيت المال.

وكل تلك الرحمة التي تجدها في ما سبق من مشاهد عملية من حياة النبي ﷺ أو أقواله الشريفة ، إنما هي ترجمة حية للإنسانية الجامعة بين البشر والتي أراد النبيﷺ التنبيه عليها ولزوم مراعاتها من قبل أتباعه ما دامت السماوات والأرض.

حيث هي ميزة وخاصية أختصت بها أمة محمد ﷺ

ولما كان لتصدع تلك العلاقة أثر بالغ في حياة الزوجين لذا فقد حرص الإسلام على لفت الأنظار إلى ضرورة ملاحظة أدنى درجات الشقاق بين الزوجين.

فقال تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا﴾ (١)

ووجه الرجل أن يوطد علاقته بزوجته بإيجاب الشرع الشريف عددا من الحقوق عليه تجاه الزوجة

بل وجعل الخيرية في خيرية الرجل لأهل بيته دون سائر علاقاته الخارجية.

أخرج الترمذي ، في السنن، بسنده إلى عائشة . رضي الله عنها . قالت : قال . رسول اللهﷺ "خيركم خيركم لأهله ، وأنا خيركم لأهلي"(٢).

وأخرج الترمذي في السنن، بسنده إلى عائشة –رضي الله عنها– : أن رسول

---

(١) سورة النساء–آية ٣٥

(٢) سنن الترمذي، كتاب: المناقب– باب: فضل أزواج النبي صلى الله عليه و سلم٥/٧٠٩رقم ٣٨٩٥،وإسناده(صحيح) ؛ لاتصاله وثقة رجاله ، وقال أبو عيسى: هذا حديث حسن غريب صحيح.

اللهﷺ قال:" إن من أكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم خُلقًا وألطفهم بأهله"[١]

بل تجاوز الكلام والحث على رعاية الأهل والحرص على قضاء حوائجهم والتلطف بهم، إلى أن يجسد ذلك لسائر أفراد الأمة واقعا ملموسا مع أهل بيته تنقله لنا أم المؤمنين وزوج رسول الله المصون السيدة عائشة رضي الله تعالى عنها-

أخرج البخاري في الأدب المفرد ،بسنده إلى عروة بن الزبير ، قال: سألت عائشة- رضي الله عنها- ما كَانَ النبي ﷺ يَعْمَلُ فِي بَيْتِهِ ، قَالَتْ : يَخْصِفُ نَعْلَهُ ، وَيَعْمَلُ مَا يَعْمَلُ الرجل فِي بَيْتِهِ "[٢].

فمع كثرة أعبائه ومسئولياته ﷺ كان زوجًا محبًا، جميل العشرة، دائم البشر، يداعب أهله، ويتلطف بهم، ويوسعهم نفقة، ويضاحك نساءه، ويصبر عليهن، ويعينهم في أمور البيت ..

كما وجه الرجل إلى رعاية شعور الزوجة وما يعتريها من إعراض أو نفور بسبب إيذائه لها أو إساءته أيا كان سبب ذلك، فوجهه إلى تطييب خاطرها أولا وإزالة ما عكر صفوها تجاهه ، وعدم مطالبتها بحق شرعي حتى يزيل ما علق بنفسيتها، وكل هذا تحت مظلة الإحسان في العلاقة مع الإنسان

أخرج البخاري في صحيحه، بسنده إلى عبد الله بن زمعة عن النبيﷺ قال : (لا يجلد أحدكم امرأته جلد العبد ثم يجامعها في آخر اليوم) [٣]

---

(١) سنن الترمذي، كتاب: الإيمان- باب: ما جاء في استكمال الإيمان وزيادته ونقصانه٥/٩رقم ٢٦١٢ و قال أبو عيسى: هذا حديث صحيح.

(٢) الأدب المفرد، كتاب: المريض- باب: ما يعمل الرجل في بيته ١/١٩٠رقم ٥٣٩ وإسناده: (صحيح) لاتصال سنده وثقة رجاله، وسلامته من الشذوذ ، والعلة القادحة.

(٣) فتح الباري ٩/٣٠٣

قال الحافظ: (..وفي سياقه استبعاد وقوع الأمرين من العاقل أن يبالغ في ضرب امرأته ثم يجامعها من بقية يومه أو ليلته والمجامعة أو المضاجعة إنما تستحسن مع ميل النفس والرغبة في العشرة والمجلود غالبا ينفر ممن جلده فوقعت الإشارة إلى ذم ذلك وأنه أن كان ولا بد فليكن التأديب بالضرب اليسير بحيث لا يحصل منه النفور التام فلا يفرط في الضرب ولا يفرط في التأديب ..اهـ، وقد جاء النهي عن ضرب النساء مطلقا)[١]

أي أن الشارع الحكيم لما رأى أن تلك العادة السيئة التي كانت منتشرة في المجتمع المكي ، قد تتسبب في هدم كثير من بيوتات المسلمين وبالتالي تفكك المجتمع المسلم جاء النهي عنها بعد ثبوت ضررها وأنها تنافي تماما ما جاء به الدين الإسلامي من قيم عليا يسعى إلى ترسيخها في نفوس أتباعه.

ثم إن تلك العادة لما كانت متأصلة لديهم ويصعب التخلص منها مرة واحدة، فقد أذن لهم النبي ﷺ في الضرب الخفيف للتأديب، والمعبر عنه بغير المبرح، وفي نصوص أخرى أنه ﷺ حدد آلته وهي عود الأراك.

وقعت أيضا الشكاية من هؤلاء الأزواج ، فكان تعبير النبي ﷺ عن وصف هؤلاء الذين وقع منهم ذلك تجاه زوجاتهم أنهم ليسو بخيار القوم.

قال الحافظ:(فإن اكتفى بالتهديد ونحوه كان أفضل ومهما أمكن الوصول إلى الغرض بالايهام لا يعدل إلى الفعل لما في وقوع ذلك من النفرة المضادة لحسن المعاشرة

---

(١) صحيح البخاري، كتاب: النكاح –باب: ما يكره من ضرب النساء٥/١٩٩٧رقم٤٩٠٨، ومسلم في صحيحه، كتاب: الجنة وصفة نعيمها وأهلها،باب النَّارُ يَدْخُلُهَا الْجَبَّارُونَ وَالْجَنَّةُ يَدْخُلُهَا الضُّعَفَاءُ.٨/١٥٤رقم٧٣٧٠

المطلوبة في الزوجية) [١]

على أن النبي ﷺ وفي إطار عنايته بتلك العلاقة مع أمهات المؤمنين، وما أثر عنه ﷺ في ذلك.

أخرج النسائي في سننه بسنده إلى عَائِشَةَ- رضي الله عنها- قَالَتْ: مَا ضَرَبَ رَسُول اللَّهِ ﷺ خَادِمًا لَهُ وَلَا امْرَأَةً وَلَا ضَرَبَ بِيَدِهِ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يُجَاهِدَ فِي سَبِيلِ اللَّه"[٢]

وقد وعى الصحب الكرام المعنى الحقيقي للدرجة التي أثبتها لهم الشرع الشريف، في قوله تعالى: (وللرجال عليهن درجة) [٣]

في مشهد راق وفعل حسن، تتجلى فيه معاني الجمال والبهاء، حيث تأنق الزوج لزوجته ، وتجمله لها ، كيف ينبغي أن يكون ، وهذا ما كان من فعل ابن عباس ﷺ مع زوجته، كما سطرت لنا كتب السنة المشرفة.

أخرج ابن أبي شيبة[٤] في مصنفه ، بسنده إلى ابن عباس ﷺ قال "إني أحب أن أتزين للمرأة كما أحب أن تتزين لي المرأة، لأن الله تعالى يقول:(ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف) [٥] ، وما أحب أن أستنظف جميع حقي عليها، لأن الله تعالى يقول(وللرجال عليهن درجة) [٦]"

---

(١) الفتح ٣٠٤/٩

(٢) سنن النسائي، كتاب: عشرة النساء- باب: ضرب الرجل زوجته٣٧٠/٥رقم ٩١٦٤، وابن ماجة في سننه ،كتاب: النكاح- باب: ضرب النساء٦٨٣/١رقم ١٩٨٤

(٣) سورة البقرة-أية ٢٢٨

(٤)مصنف ابن أبي شيبة، باب: ما قالوا في قوله تعالى(وللرجال عليهن درجة)١٩٦/٤رقم١٩٢٦٣

(٥) سورة البقرة-أية ٢٢٨

(٦) سورة البقرة-أية ٢٢٨

بل تجاوز علاقة الزوجية القائمة بين الزوجين بالفعل إلى وصول مقام الإحسان لما بعد افتراقهما إذا آلت الأمور بينهما إلى ذلك وقدر الله افتراقهما.

قال تعالى: ﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ..﴾ (١).

وللحفاظ على علاقة الرحم بين بنات الأخ وعمتهم أو بنات الأخت وخالتهم التي هي في عصمة الرجل حرم الإسلام أن يجمع الرجل في عصمته امرأة وعمتها أو امرأة وخالتها ، وذلك لأن جمع أكثر من زوجه عند رجل واحد ، يورث بينهن العداوة والبغضاء، لما يحصل من الغيرَةِ بين هؤلاء النساء، نهى أن يكون هذا التعدد بين القريبات، خشية أن يفضي ذلك إلى قطيعة الرحم.

فنهى أن تنكح الأخت على الأخت، وأن تنكح العمة على بنت الأخ وابنة الأخت على الخالة وغيرهن، مما لو قدر إحداهما ذكرا والأخرى أنثى، حرم عليه نكاحها في النسب. فإنه لا يجوز الجمع والحال هذه، وقد بوب أهل العلم لذلك أبوابا كاملة في كتبهم لهذه القاعدة العظيمة من قواعد الإسلام.

قال النووي: ((باب: تحريم الجمع بين المرأة وعمتها أو خالتها في النكاح)

قوله –صلى الله عليه وسلم–: (لا يجمع بين المرأة وعمتها ولا بين المرأة وخالتها) وفي رواية لا تنكح العمة على بنت الأخ ولا ابنة الأخت على الخالة هذا دليل لمذاهب العلماء كافة أنه يحرم الجمع بين المرأة وعمتها وبينها وبين خالتها سواء كانت عمة وخالة حقيقة وهي أخت الأب وأخت الأم) (٢).

وأكتفي بهذا القدر من النماذج التي ملئت بمثيلاتها كتب السنة النبوية للتدليل على مدى عناية السنة النبوية بتلك العلاقات الإنسانية.

*****

١) سورة البقرة– آية٢٢٩

٢) شرح النووي٩/١٩٠

المبحث الثالث

مرتبة الإحسان في علاقة العبد مع الكون المحيط به

(إنسان أو حيوان أو جماد).

توطئة:

وقد يسأل القارئ الكريم : ما علاقة هذا المبحث بموضوع البحث؟

وأجيبه : أن مقصودي بالعلاقات من البحث هو علاقات الإنسان بغيره مطلقا لا مجرد علاقة الإنسان بأخيه الإنسان ، كما أنني بالنظر والتأمل في نصوص الشرع الشريف ووصفه للعلاقات الإنسانية عبر العصور وجدت أن الرابط الأعظم والوعاء الشامل الذي لا تنفك عنه علاقة الإنسان بالكون المحيط به من إنسان أو حيوان أو جماد ينبغي أن تكون هي (الإحسان)، فإذا غضضنا الطرف عن تلك المرتبة من العلاقات التي تشمل الحيوان والنبات والجماد لضاعت منا جملة عظيمة من عناية الشرع الشريف بها متمثلة في نصوص القرآن الكريم والسنة النبوية.

قال تعالى: ﴿ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ﴾ [1].

قال الإمام القرطبي: (روى يزيد الرقاشي عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "ما من مؤمن إلا وله في السماء بابان باب ينزل منه رزقه وباب يدخل منه كلامه وعمله فإذا مات فقداه فبكيا عليه – ثم تلا – {فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ}. يعني أنهم لم يعملوا على الأرض عملا صالحا تبكي عليهم لأجله ، ولا صعد لهم إلى السماء عمل صالح فتبكي فقد ذلك. وقال مجاهد : إن السماء والأرض يبكيان على المؤمن أربعين صباحا. قال أبو يحيى : فعجبت من قوله

---

١) سورة الدخان–آية (٢٩).

فقال : أتعجب ! وما للأرض لا تبكي على عبد يعمرها بالركوع والسجود ! وما للسماء لا تبكي على عبد كان لتسبيحه وتكبيره فيها دوي كدوي النحل !. وقال علي وابن عباس رضي الله عنهما : إنه يبكي عليه مصلاه من الأرض ومصعد عمله من السماء. وتقدير الآية على هذا: فما بكت عليهم مصاعد عملهم من السماء ولا مواضع عبادتهم من الأرض) [1].

فها هو توضيح العلماء لكلام الحق تبارك وتعالى يظهر لنا من خلاله أيما ظهور كيف أن العلاقة بين الإنسان وما حوله من أشياء قد يتصور أنها جمادات لا قيمة لها ، كيف أنها وطيدة وذات معنى.

كما تجد تلك الرحمة العامة فيما ساقه النبي ﷺ من أمثلة على ما كان من بعض أفراد الأمم السابقة من أفعال وتصرفات تجاه مخلوقات أخرى غير بني آدم ، قد يستهين الإنسان بوجودها معه في عالم واحد لكن رب العزة سبحانه قد جعل لها شأنا وشأوا

وأختتم الحديث عن الإنسانية وعناية السنة بها، بهذا الحديث النبوي الجامع كما وصف الأئمة المعتمدون.

والذي يتجاوز فيه النبي الكريم ﷺ الوصية بالبشر إلى الوصية بالحيوان حال انتفاع بني آدم به بالأكل .

فيأمر أتباعه باتخاذ كل سبل الراحة لهذا الحيوان لكي يقتل أو يهلك في هدوء وسكينة في مشهد عملي راق.

أخرج مسلم في صحيحه بسنده إلى شَدَّادِ بْنِ أَوْسٍ ﷺ قَالَ: "ثِنْتَانِ حَفِظْتُهُمَا

---

١) الجامع لأحكام القرآن ١٦/١٤٠

عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ « إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ الإِحْسَانَ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ فَإِذَا قَتَلْتُمْ فَأَحْسِنُوا الْقِتْلَةَ وَإِذَا ذَبَحْتُمْ فَأَحْسِنُوا الذَّبْحَ..الحديث[١]

قال الإمام النووي: (وليرح ذبيحته بإحداد السكين وتعجيل إمرارها وغير ذلك ويستحب أن لا يحد السكين بحضرة الذبيحة وأن لا يذبح واحدة بحضرة أخرى ولا يجرها إلى مذبحها ، وقوله ﷺ: فأحسنوا القتلة عام فى كل قتيل من الذبائح والقتل قصاصا وفى حد ونحو ذلك وهذا الحديث من الأحاديث الجامعة لقواعد الاسلام) [٢]

تجده ﷺ يرغبنا في نشر الإنسانية والرحمة العامة حتى مع الحيوان ، فيسوق لنا قصة فيها عبرة وعظة يستحث فينا بها قيمة الإنسانية التي قد يتناساها بنو البشر مع صعوبة الحياة الدنيا وما يقاسونه فيها من شقاء وعناء تجاه بني جنسهم فضلا عن تناسيهم إياها تجاه المخلوقات الأخرى.

أخرج البخاري في صحيحه بسنده إلى أَبِى هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ « بَيْنَمَا رَجُلٌ يَمْشِى بِطَرِيقٍ اشْتَدَّ عَلَيْهِ الْعَطَشُ فَوَجَدَ بِئْرًا فَنَزَلَ فِيهَا فَشَرِبَ ثُمَّ خَرَجَ فَإِذَا كَلْبٌ يَلْهَثُ يَأْكُلُ الثَّرَى مِنَ الْعَطَشِ فَقَالَ الرَّجُلُ لَقَدْ بَلَغَ هَذَا الْكَلْبَ مِنَ الْعَطَشِ مِثْلُ الَّذِى كَانَ بَلَغَ مِنِّى. فَنَزَلَ الْبِئْرَ فَمَلأَ خُفَّهُ مَاءً ثُمَّ أَمْسَكَهُ بِفِيهِ حَتَّى رَقِىَ فَسَقَى الْكَلْبَ فَشَكَرَ اللَّهُ لَهُ فَغَفَرَ لَهُ ». قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَإِنَّ لَنَا فِى هَذِهِ الْبَهَائِمِ لأَجْرًا ، فَقَالَ « فِى كُلِّ كَبِدٍ رَطْبَةٍ أَجْرٌ » [٣].

---

١) صحيح مسلم، كتاب: الصيد والذبائح- باب: الأَمْرِ بِإِحْسَانِ الذَّبْحِ وَالْقَتْلِ وَتَحْدِيدِ الشَّفْرَةِ ٦/٧٢رقم٥١٦٧

٢) شرح النووي١٣/١٠٧

٣) صحيح البخاري، كتاب: الأدب- باب: رحمة الناس والبهائم٥/٢٢٨٣رقم ٥٦٦٣، ومسلم في كتاب السلام- باب: فضل ساقي البهائم المحترمة وإطعامها٧/٤٤رقم ٥٩٩٦

فترى النبي الكريم ﷺ يذكر أن المولى عز وجل بعظمته وملكوته يشكر لهذا العبد هذا الفعل ، بل يكون سببا في غفران ذنوبه وبالتالي دخوله الجنة التي هي غاية الغايات.

قال الإمام النووي: ((فى كل كبد رطبة أجر) معناه فى الإحسان إلى كل حيوان حى بسقيه ونحوه أجر وسمى الحى ذا كبد رطبة لأن الميت يجف جسمه وكبده ففى هذا الحديث الحث على الإحسان إلى الحيوان المحترم وهو ما لا يؤمر بقتله) [١].

وإذا ضربنا مثالا لمدى احسانه ﷺ للنبات لم يسعنا أن نسوق لذلك حنين الجذع لجواره الشريفﷺ

أخرج البخاري في صحيحه بسنده إلى ابن عمر –رضي الله عنهما– : كان النبي ﷺ يخطب إلى جذع فلما اتخذ المنبر تحول إليه فحن الجذع فأتاه يمسح يده عليه"[٢]

فحنوه ﷺ على هذا الجذع بمثابة حنان الأم على وليدها الذي أنجبته ، لهو قمة الإحسان إلى هذا النبات الذي يبدو في أعين الناظرين جمادا أو شيئا لا قيمة له.

قال الحافظ: (حنين الجذع وأصله ترجيع صوت الناقة على أثر ولدها) [٣].

وتراهﷺ يشير إلى فضيلة جبل أحد في مشهد روحاني راق

أخرج البخاري في صحيحه بسنده إلى أَنَسٍ رضي الله عنه قَالَ: نَظَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى أُحُدٍ ، فَقَالَ: « إِنَّ أُحُدًا جَبَلٌ يُحِبُّنَا وَنُحِبُّهُ اللهم إن إبراهيم حرم مكة وإني حرمت ما

---

١) شرح النووي ٢٤١/١٤

٢) صحيح البخاري، كتاب: المناقب– باب: علامات النبوة في الإسلام١٣١٣/٣رقم ٣٣٩٠

٣) الفتح ٤٧٣/٦

بين لابتيها »[١]..

فانظر ايها القارئ الكريم كم طال إحسانه -عليه السلام- الجماد فضلا عن الإنسان المكرم من قبل رب العباد!

قال الامام النووي: (الصحيح المختار أن معناه أن أحدا يحبنا حقيقه جعل الله تعالى فيه تمييزا يحب به كما قال سبحانه وتعالى وإن منها لما يهبط من خشية الله.. وقيل المراد يحبنا أهله فحذف المضاف وأقام المضاف إليه مقامه) [٢].

قلت: إن من يجعل مقام الإحسان له رفيقًا، ويتخذه في رحلته إى الخالق – عزوجل- مؤنسًا ودليلًا ، لن ينفك عنه وعد الحق تبارك وتعالى، بالمعية الدائمة والعناية المستمرة، تصديقا لقوله تعالى ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُون﴾[٣].

هذا واكتفي بما سقته من نماذج للتدليل على عناية السنة النبوية بالعلاقات الإنسانية، وكذا بالكون المحيط بالإنسان من حيوان أو نبات أو جماد ، وما حوته بطون كتب السنة مما يؤكد هذا المعنى أكثر وأكثر.

*****

١) صحيح البخاري، كتاب: المغازي- باب: أحد يحبنا ونحبه ١٤٩٨/٤رقم ٣٨٥٦ ، ومسلم في كتاب الحج- باب: أحد جبل يحبنا ونحبه ١٢٤/٤رقم ٣٤٣٩

٢) شرح النووي ١٣٩/٩، ١٤٠.

٣) سورة النحل-أية ١٢٨

الخاتمة

الحمد لله وكفى، وسلام على عباده الذين اصطفى، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين

وبعد،،

فقد وفقني المولى عز وجل بفضله وكرمه وجوده وإحسانه الذي عم الخلائق كلها، أن أتم هذا البحث المتواضع الذي عنونته (عناية السنة النبوية بالعلاقات الإنسانية) دراسة موضوعية في ضوء السنة النبوية . على حسب ما منحني من قوة وجهد، فإن أكن قد وفقت فيه، فمن عظيم كرم المولى عزوجل وجوده وبسطه، وقد توصلت من خلاله إلى عدة نتائج أسوقها على النحو الآتي:

أولا: إعتنت السنة النبوية عناية فائقة بالعلاقات الإنسانية على جميع المستويات وكافة المراتب .

ثانيًا: أن كلمة (الإحسان) وتعميق معناها ولزومها هو ملخص كل غايات الشريعة، وأحد أهدافها ومقاصدها.

ثالثًا: الإحسان هو الرابط الدقيق الذي يجمع تحت وشائجه كافة الشرائح الاجتماعية، على كافة مستويات العلاقات الإنسانية.

رابعًا: أكد الإسلام على لزوم جانب الإحسان في العلاقات الإنسانية وأرسى قواعدها على أسس ثابتة، ومبادئ لا يمكن غض الطرف عنها.

خامسًا: إن العلاقات الإنسانية على اختلاف صورها حظيت من السنة النبوية المطهرة بالجانب الأوفر من الاهتمام والتركيز والتنمية.

سادسًا: العلاقات الإنسانية كما عرضت لنماذج منها في السنة النبوية ، متنوعة ومتعددة تستوعب كافة الجوانب الوجدانية والنفسية للفرد المسلم.

سابعًا: هناك علاقة وطيدة بين ما جاء التراث الإسلامي من نصوص الكتاب أو السنة وغيرها من أقوال العلماء ، وبين الواقع المعاصر إذا أحسنا تطبيق ما جاء به الشرع الشريف من أوامر ونواه على الوجه الأكمل.

ثامنًا: العلاقات الإنسانية في منظومة الفكر الإسلامي تدعو إلى تماسك أفراد المجتمع وتوادهم وتعاطفهم وتدعيم أواصر المحبة بينهم.

تاسعًا: الأخوة الإنسانية هي أعم العلاقات وأشملها، وأولاها بالتوطيد والاهتمام، لأنها أساس السلام المجتمعي الذي هو ركيزة أساسية في منظومة الفكر الإسلامي.

عاشرًا: أن أقوى العلاقات الإنسانية الفطرية تماسكا على مستوى الأفراد هي علاقة الوالدين بأبنائهما وتتصدر تلك العلاقة المزدوجة علاقة الأمومة كما قرر ذلك الشرع الشريف في عدد لا يستهان به من النصوص.

حادي عشر: أن استقرار المجتمع وتمتعه بالسلام بين كافة أفراده على اختلاف مشاربهم يؤدي إلى رفع معدل الإنتاج والإبداع في شتى المجالات ، سواء كانت حرفية أو فكرية.

وأما عن التوصيات فهي على النحو الآتي :

أولًا: أهيب بالباحثين في شتى مجالات العلوم الشرعية أن يلقو بسهمهم في ميدان الدراسات المهتمة بعلاقات البشر بعضهم البعض، فهو غاية تعدد أجناس البشر في شتى بقاع الأرض،

ثانيًا: أهيب بمؤسسات الدولة التعليمية أن تقوم بعمل مادة علمية رصينة ترتكز على الجانب الإنساني قي المعاملات والذي عنيت به السنة النبوية على مدار عمر الدعوة المحمدية ، وتركت في ذلك الشأن ثروة علمية لا يمكن غض الطرف عنها.

ثالثًا: إقامة ندوات ومؤتمرات من هذا النوع الذي يراعى فيه ربط ما جاء من تدفق معرفي من خلال كتب التراث، بالواقع المعاصر الذي يعيشه الناس، ومحاولة سد ما يتوهم من فجوة بين الماضي والحاضر، وتوضيح السبب الحقيقي لهذا الوهم.

رابعًا: التركيز على مفهوم الإحسان في الدراسات الشرعية، ومحاولة استخراج أكبر كم ممكن من مادتها الثرية في كافة التخصصات.

خامسًا: أدعو جميع الأبناء بلزوم بر والديهم كما أوصاهم بذلك الشرع الشريف، كما أدعو جميع الآباء والأمهات أن يكونوا عونا لأبنائهم على برهم لا العكس.

سادسًا: الأم هي أجل صور الإكرام الإلهي للإنسان على وجه الأرض، ولذا أهيب بكل إنسان مسلم أن يلزم برها ويجهد نفسه في إكرامها، لأن الجنة تحت أقدامها ، كما قرر ذلك الشرع الشريف.

سابعًا: أن يتم- في إطار تجديد العلوم الإسلامية – توليد علم مستقل يختص بالعلاقات الإنسانية عموما في الشرع الشريف يجتمع فيه مع الأحكام الشرعية علم النفس وعلم الاجتماع وعلم السياسة، ويكون مادة علمية رصينة تدرس في الجامعات، وما يندرج تحتها من المؤسسات التعليمية ، بدلا من تفرق مادته في علوم كثيرة .

*****

الـفـهــارس

(أولاً) فِهْرِس المصادر والمراجع

١. القرآن الكريم – جل من أنزله وعلا-.

٢. أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار،لأبي الوليد محمد بن عبد الله بن أحمد الأزرقي، دراسة وتحقيق: علي عمر، الناشر: مكتبة الثقافة الدينية ، الطبعة الأولى.

٣. أخلاق النبي وآدابه ، لعبد الله بن محمد بن جعفر بن حيان الأصبهاني،ت ٣٦٩هـ تحقيق: صالح بن محمد الونيان، ط: دار المسلم للنشر والتوزيع ١٩٩٨،

٤. تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، لأبي العلي محمد بن عبد الرحمن المبارَكْفُوري، (ت ١٣٥٣هـ)، مراجعة: عبد الرحمن محمد عثمان، ط:دار الفكر.

٥. الروض الأنف في شرح السيرة النبوية لابن هشام، أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد بن أبي الحسن الخثعمي السهيلي (المتوفى: ٥٨١هـ)، تحقيق: عمر عبد السلام السلامي، الناشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت،الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م.

٦. سبل الهدى والرشاد، في سيرة خير العباد، وذكر فضائله وأعلام نبوته وأفعاله وأحواله في المبدأ والمعاد،لمحمد بن يوسف الصالحي الشامي

٧. سنن ابن ماجه، لمحمد بن يزيد أبو عبدالله القزويني ، ط: دار الفكر – بيروت، تحقيق : محمد فؤاد عبد الباقي.

٨. سنن أبي داود، لسليمان بن الأشعث، أبي داود السجستاني (ت٢٧٥هـ)،

بأحكام الألباني ط: دار الكتاب العربي . بيروت.

٩. سنن الإمام الترمذي المسمى الجامع المختصر من السنن عن رسول الله ومعرفة الصحيح والمعلول وما عليه العمل للامام محمد بن عيسى أبو عيسى الترمذي السلمي ت(٢٧٩هـ) ،طبعة: دار إحياء التراث العربي – بيروت. تحقيق : أحمد محمد شاكر وآخرون.

١٠. السيرة النبوية لابن هشام ،لعبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري المعافري أبو محمد، ت (٢١٣)هـ ، تحقيق طه عبد الرءوف سعد،ط/ دار الجيل –بيروت، ١٤١١هـ

١١. شرح صحيح البخاري، لأبي الحسن علي بن خلف بن عبد الملك بن بطال البكري القرطبي، تحقيق : أبوتميم ياسر بن إبراهيم، ط: مكتبة الرشد الرياض ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣م ،الطبعة الثانية.

١٢. الصحاح؛ تاج اللغة وصحاح العربية.لإسماعيل بن حماد الجوهري (ت٣٩٣هـ).ط: دار العلم للملايين- بيروت.الطبعة: الرابعة ١٩٩٠م.

١٣. صحيح البخاري = الجامع المسند المختصر من أمور النبي ﷺ وسننه وأيامه، لأبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري (ت٢٥٦هـ)، طبعة : دار ابن كثير ، اليمامة – بيروت ، الطبعة الثالثة ، ١٤٠٧ هـ – ١٩٨٧م. تحقيق : د. مصطفى ديب البغا أستاذ الحديث وعلومه في كلية الشريعة – جامعة دمشق.

١٤. صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان ، لمحمد بن حبان بن أحمد أبو حاتم التميمي البستي ، الناشر : مؤسسة الرسالة – بيروت، الطبعة الثانية ، ١٤١٤ – ١٩٩٣، تحقيق : شعيب الأرنؤوط.

١٥. صحيح مسلم ، ويسمى: المسند الصحيح المختصر من السنن بنقل العدل

عن العدل إلى رسول اللهﷺ، لأبي الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوري (ت٢٦١هـ)، طبعة : دار الجيل بيروت + دار الأفاق الجديدة . بيروت.

١٦. فتح الباري شرح صحيح البخاري، لأبي الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢)، تقديم وتحقيق وتعليق: عبد القادر شيبة الحمد، طبع على نفقة: الأمير سلطان بن عبد العزيز آل سعود ١٤٢١هـ

١٧. الفائق في غريب الحديث، لمحمود بن عمر الزمخشري، ط/دار المعرفة – لبنان،الطبعة الثانية،تحقيق : علي محمد البجاوي –محمد أبو الفضل إبراهيم.

١٨. . مختار الصحاح،لمحمد بن أبي بكر بن عبدالقادر الرازي،ط/ مكتبة لبنان – بيروت،طبعة جديدة ، ١٤١٥ – ١٩٩٥ تحقيق : محمود خاطر.

١٩. مُصنف ابن أبي شيبة ، لأبي بكر عبد الله بن محمد بن أبي شيبة العبسي الكوفي (١٥٩ . ٢٣٥ هـ) ، تحقيق : محمد عوامة.

٢٠. المخصص، لأبي الحسن علي بن إسماعيل النحوي اللغوي الأندلسي المعروف بابن سيده ت (٤٥٨)هـ ،ط: دار إحياء التراث العربي – بيروت ١٤١٧هـ ١٩٩٦م ، الطبعة : الأولى ، تحقيق : خليل إبراهم جفال

٢١. المسند، للإمام أحمد بن حنبل (ت٢٠٤هـ) ،المحقق: شعيب الأرنؤوط وآخرون، طبعة: مؤسسة الرسالة ، الطبعة الثانية ١٤٢٠هـ ، ١٩٩٩م.

٢٢. المحكم والمحيط الأعظم، لأبي الحسن علي بن إسماعيل النحوي اللغوي الأندلسي المعروف بابن سيده ت (٤٥٨)هـ ، ط : دار الكتب العلمية– بيروت ، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، سنة النشر ٢٠٠٠م.

٢٣. المعجم الوسيط، تأليف لجنة من اللغويين ، بإشراف مجمع اللغة العربية

بالقاهرة، ط: دار الدعوة.

٢٤. المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، لأبي زكريا يحيى بن شرف بن مري النووي ،ط: دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة الثانية ، ١٣٩٢

٢٥. النهاية في غريب الحديث والأثر، لأبي السعادات مجد الدين المبارك بن محمد بن الأثير الجزري. ت (٦٠٦هـ) تحقيق: طاهر أحمد الزاوي، محمود محمد الطناحي، ط: دار إحياء التراث العربي . بيروت . لبنان.

*****

(ثانيًا) فهرس الموضوعات

	الموضوع	الصفحة
١	صفحة العنوان	١١٧
٥	المقدمة	١١٩
٦	أسباب اختيار الموضوع	١٢٣
٨	أهمية الموضوع	١٢٤
١٢	المبحث الأول: مرتبة الإحسان في علاقة العبد مع الخالق عز وجل.	١٢٦
١٣	المبحث الثاني: مرتبة الإحسان في علاقة العبد مع الكون المحيط به (إنسان أو حيوان أو جماد).	١٢٩
	المبحث الثالث: مرتبة الإحسان في علاقة العبد مع الكون المحيط به.	١٥٨
١٦	الخاتمة.	١٦٣
٢٢	فِهْرِس المصادر والمراجع.	١٦٦
٢٣	فِهْرِس الموضوعات.	١٧٠

*****